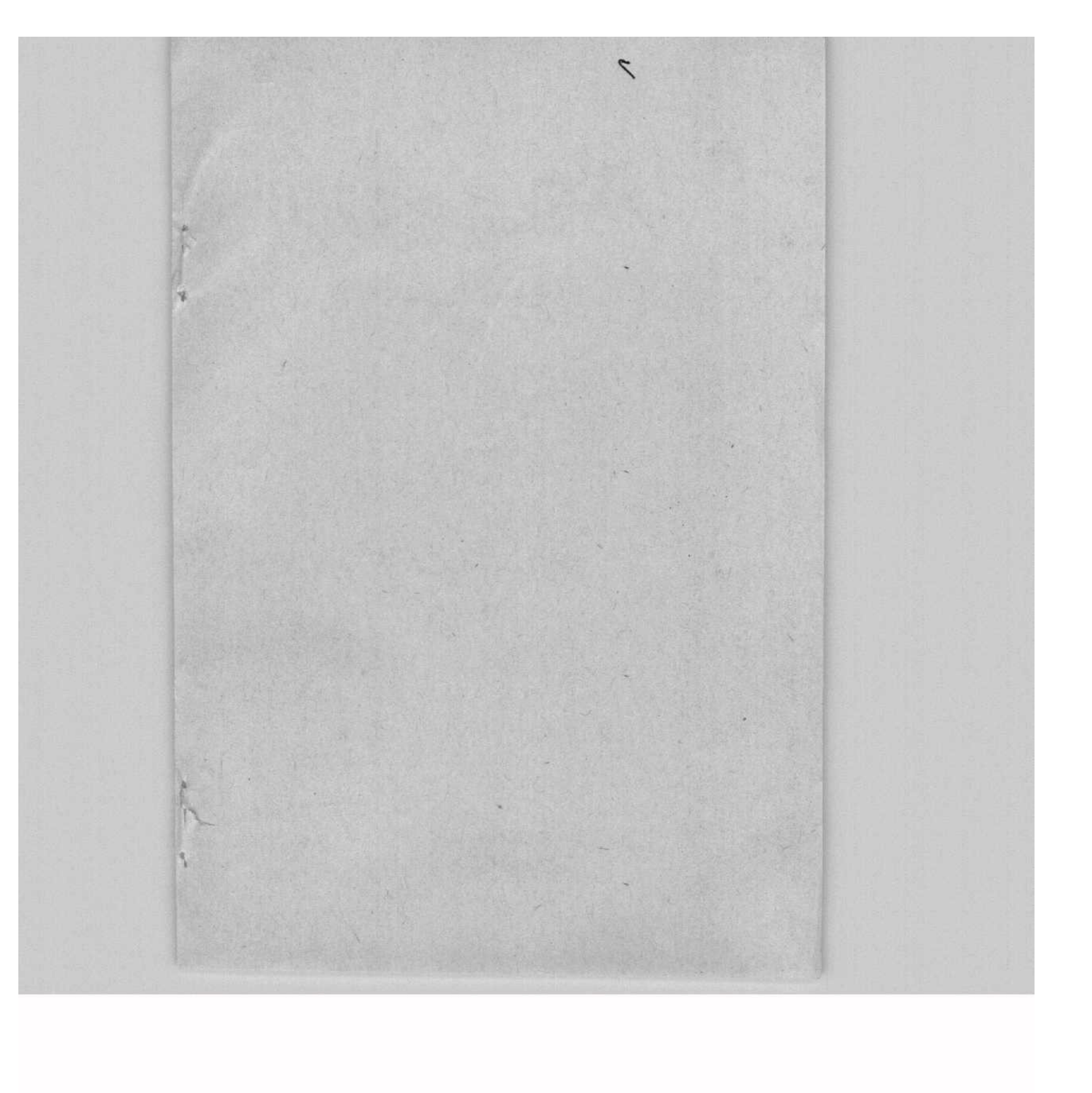
المرأة فى حياة وشعر

العصر الأموى

د. مهجة محمد كامل درويش

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

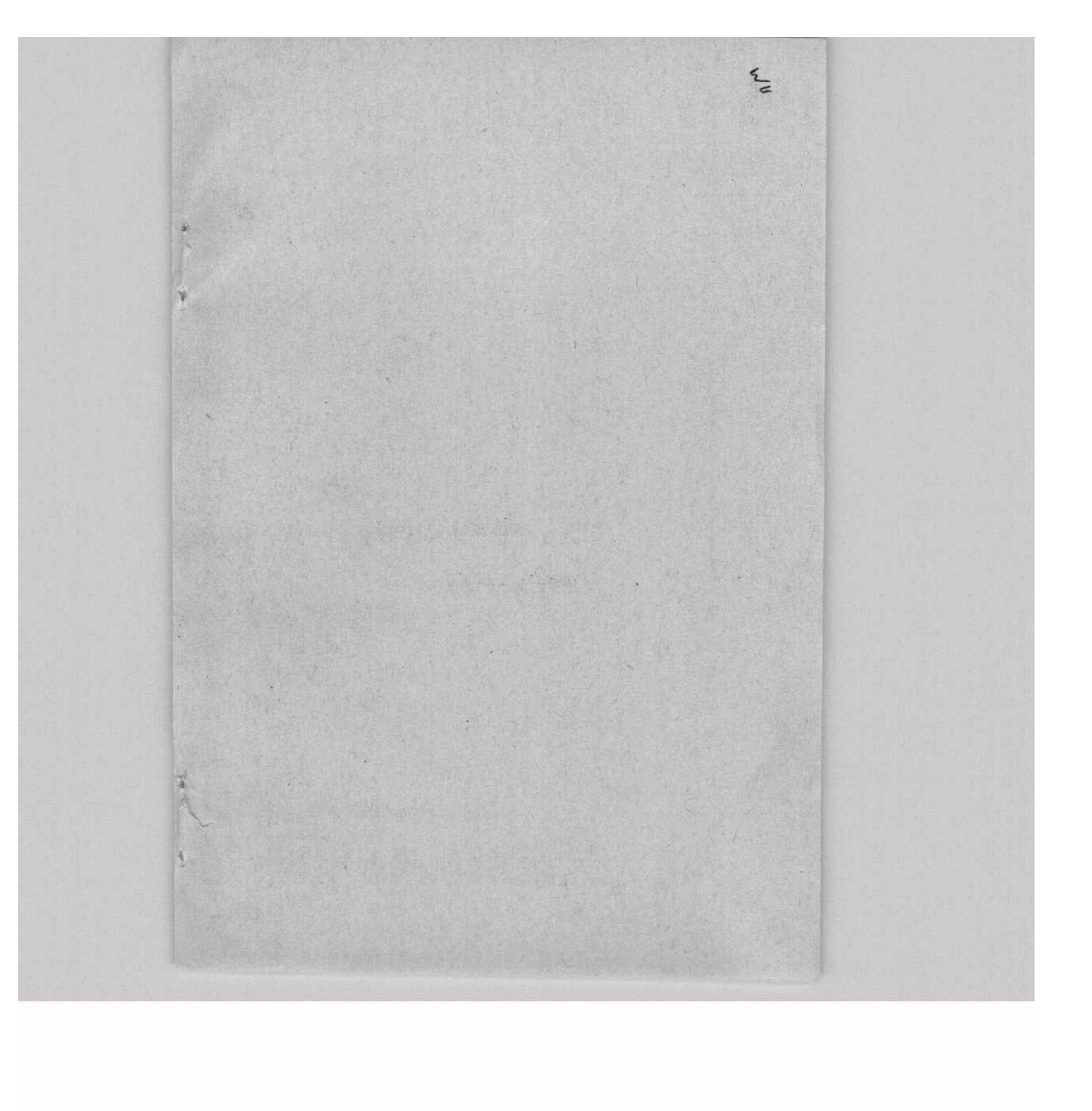


الاهـــــداء

الى زوجى ...

الذى يشاركنى رحـلة الحياة

مع وافر حبى وتقديرى



مقـــدمة :

من الأقوال المشهورة : المرأة تهز المهد بيمينها وتهز العـالم بيسارها ، فتش عن المرأة وذلك لأثرها الكبير فى حياة المجتمـــع وأفراده ٠

ولكن هل كان الاعتـراف بمكانة المرأة وأهميتها أمرا مقررا فى كل العصور وفى كل البيئات ٠ الأمر الواضح أن المرأة يقـــع عليها العبء الأكبر فى الحياة فهى التى تحمل وتلد وترضع وتعانى فى تربية أولادها وحل مشكلاتهم هذا الى جانب قيامها بأعباء منزلها والسهر على راحة زوجهـا ٠

هذه هى المسئولية الأولى والتى لم تختلف فى كافة العهود والمجتمعات وهى الرسالة الأولى التى خلقت من أجلها ٠ ومـــع الأهمية الكبرى للمرأة والدور العظيم الذى تقوم به فى تربية الأجيال فلم يتفق على تقدير مكانتها واختلفت النظرة اليها وتباينت على مر العصور ٠ نظر اليها البعض على أنها خادمة الأسرة وأوجبـــوا عليها ضرورة القيام بأعبائها ٠ ونظر اليها آخرون على أنها ربـة الأسرة التى تدير شئون مملكتها بحزمها ولينها وعطفها وحبها ٠

كانت المرأة فى الشريعة اليهودية تسبى وتورث وتباع وللآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق وأن يقتلوهن (١) ٠ وكانت المرأة اليهودية مملوكة لأبيها قبل زواجها تشترى منه عند زواجها بالمهر الذى يدفعه الزوج للاب أو الأخ ثم

---

(١) حضارة العرب جوستاف لوبون : ١٩٢

تصير مملوكة للزوج وهو سـيدها المطلق فاذا مات ورثها وارثه وتصرف فيها كيف شاء ٠

وفى المسيحية أعزت المرأة بعض الاعزاز لذا هرعت النساء الى المسيحية أفواجا لأنهن أحببن من تعاليمها (أنه لا يهـودى ولا اغريقى ولا عبد ولا حر ولا ذكر ولا انثى كلكم من يسـوع المسيح) (١) ٠

وقامت المسـيحية فى أول عهـدها على جهـد النسـاء فكن مبشرات وكن يهبن لها ويدافعن عنها فى حماسة وقد اعترف بهن قسيسات ٠ وأظهرت المبشرات كثيرا من ضروب الشجاعة والتمسك بالعقيدة واحتملن العذاب راضيات (٢) ومع ذلك لم يرتفع شأن المرأة الا قليلا ٠ وفسر بعض رجال الدين قصة آدم وحواء على أن المرأة حليفة الشيطان ولذا فهى جديرة بالاحتقار ٠

وكانت المرأة عند الفرس واليونان والرومان تعد من سـقط المتاع ٠ وفى الجاهلية كان للمرأة العربية مكانة فى أسرتها أما فى الحياة العامة فلم يكن لها شأن يذكر الا قليلات من النساء مثـل بلقيس التى حكمت سبأ ولقيت سليمان عليه السلام وهى لم تؤت الملك وحده بل (وأوتيت من كل شىء عظيم ولها عرش عظيم) وكانت راجحة العقل بعيدة النظر تناقش أهل مملكتها وكبار قوادها وقد ذكر القرآن ذلك (٣) ٠ كما رويت عن بلقيس هذه قصص مبالغ

---

(١) عن المرأة فى الشعر الجاهلى

(٢) المرأة فى مختلف العصور : ٣١

(٣) سورة النحل آية ٢٨ ـ ٣٥

فيها ردها بعض المؤرخين (١) وهى ان دلت على شىء فانما تدل على اتساع ملكها وعظمته ·

وهناك ملكة عربية أخرى كان لها شهرة واسعة هى الزباء التى حكمت تدمر فى القــرن الثــالث بعــد الميلاد وترجع شــهرتها الى ما تميــزت به من شــجاعة ودهاء (٢) فكانت سيرتها أشــبه بسير الأبطال من الرجال وكانت فارســة تؤثر الخيل المطهمة وكانت ديمقراطية تشاور أعوانها وكثيرا ما بهرتهم بقوة برهانها · وكثيرا ما ضم مجلسها رجالا من أمم شتى كوفود ملك الفرس والأرمن ·

وقد اشتهر منهن بالفطنة والذكاء واللسن والجواب هند بنت الخس وجمعة بنت حابس ومعاذة العدوية ولها حديث فى وصف الخيل والنساء والرجال مع القلمس (٣) · ومنهن صحر بنت لقمان وحذام بنت الريان وفاطمة بنت الخشرب · ومن الشهيرات اللائى ضرب بهن المثل مارية بنت ظالم بن وهى بن الحارثة الكندية وهى أم الحارث الأعرج ملك غسان التى يقول فيها حسان بن ثابت (٤) :

أولاد جفنــه حول قبر أبيهم   قبر ابن مارية الكريم المفضل

وقد ضرب المثل بقرطيها فقيل خذه ولو بقطى مارية) (٥) أى خذه بالشىء العزيز الذى لا يقدر عليه ·

---

(٢) الطبرى ١/٢٥٤ ، الكامل ١/٨٩ ، ٩٠
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١/٨٧
(٣) المرأة فى الشعر الجاهلى عن بلاغات النساء لابن طيفور
(٤) المرأة فى الشعر الجاهلى : ٥٣٤
(٥) خزانة الادب البغدادى ٢/٣٨

وقد شاركت النساء الرجال فى الجاهلية فى بعض ما يقومون به كالاجارة والحماية ، وكان لها مكانة تبدو من خلال الشعر الجاهلى . كما شاركت فى الحياة الفنية فكان منهن الشاعرة . وكان الرقيق من النساء مولعات بالغناء .

وأما كراهية العرب للبنات فهو حق لأنه ورد فى القرآن الكريم ولكنه لم يكن عاما وانما كان فى القبائل الضعيفة التى كانت تخشى الحرب والاغارة عليها فتؤخذ نساؤها سبايا . وفى عصرنا الحاضر وخاصة فى الصعيد نجد بعض الأسر تكره البنات وتفضل البنين وربما سرح الرجل امرأته اذا أنجبت له البنات ، وعلى الرغم من أن المرأة العربية فى الجاهلية كانت أعلى مكانة من مثيلاتها فى الأمم الأخرى فانها حرمت من حقوق هامة وأساسية ، فلما جاء الاسلام منحها كافة الحقوق التى تحفظ عليها انسانيتها وكانت المرأة فى الصدر الأول من الاسلام مثالا مشرفا للمسلمة المضحية بكل ثمين وغال فى سبيل نشر الدعوة الاسلامية آمنت بالله ورسوله وأسلمت وحسنت عقيدتها ونشأت أبناءها على الايمان وحببت الاسلام الى قلوبهم . وكانت نعم المعين فى الشدائد فشاركت فى الجهاد ووقفت الى جانب الأبطال المدافعين عن الاسلام فى السراء والضراء ورثت الشهداء الذين وقعوا فى الغزوات وأخبارها وشعرها فى التحريض على القتال وفى الرثاء كثير فى كتب السيرة . وصورتها مشرقة رائعة مضيئة بما قدمت وتقدم من أجل الحياة الفضلى . ودراستها هامة لاستخلاص القدوة الصالحة للمرأة المسلمة .

ولأهمية المرأة ومكانتها واعتمادا على توصية أوصاها أستاذى الدكتور الحوفى رحمه الله بوجوب دراسة المرأة فى شتى

العصور (١) رأيت أن أخصص هذا البحث لدراسة المرأة فى العصر الأموى فقسمت دراستى الى فصلين تناولت فى الأول مكانة المرأة فى الحياة العامة . وفى الفصل الثانى المرأة فى الشعر الأموى .

بحثت أولا عن مكانتها كشاعرة والفنون التىعنيت بنظمها والسمات التى تميز شعرها • وأما القسم الثانى فتناولت فيه صورة المرأة كما يعكسها شعر الشعراء وفيه تبدو مكانتها وجمالها وأخلاقها وحليها وملابسها وعاداتها وتقاليدها والمثل العليا التى كان يرتضيها العربى للمرأة فى ذلك الزمان •

وخصصت قسما ثالثا للحديث عن المرأة كما بدت فى شعر عمر بن أبى ربيعة . وناقشت الآراء التى دارت حول حرية المرأة فى هذا العصر •

وكانت أهم مصادرى دواوين الشعراء الأمويين ثم كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى •

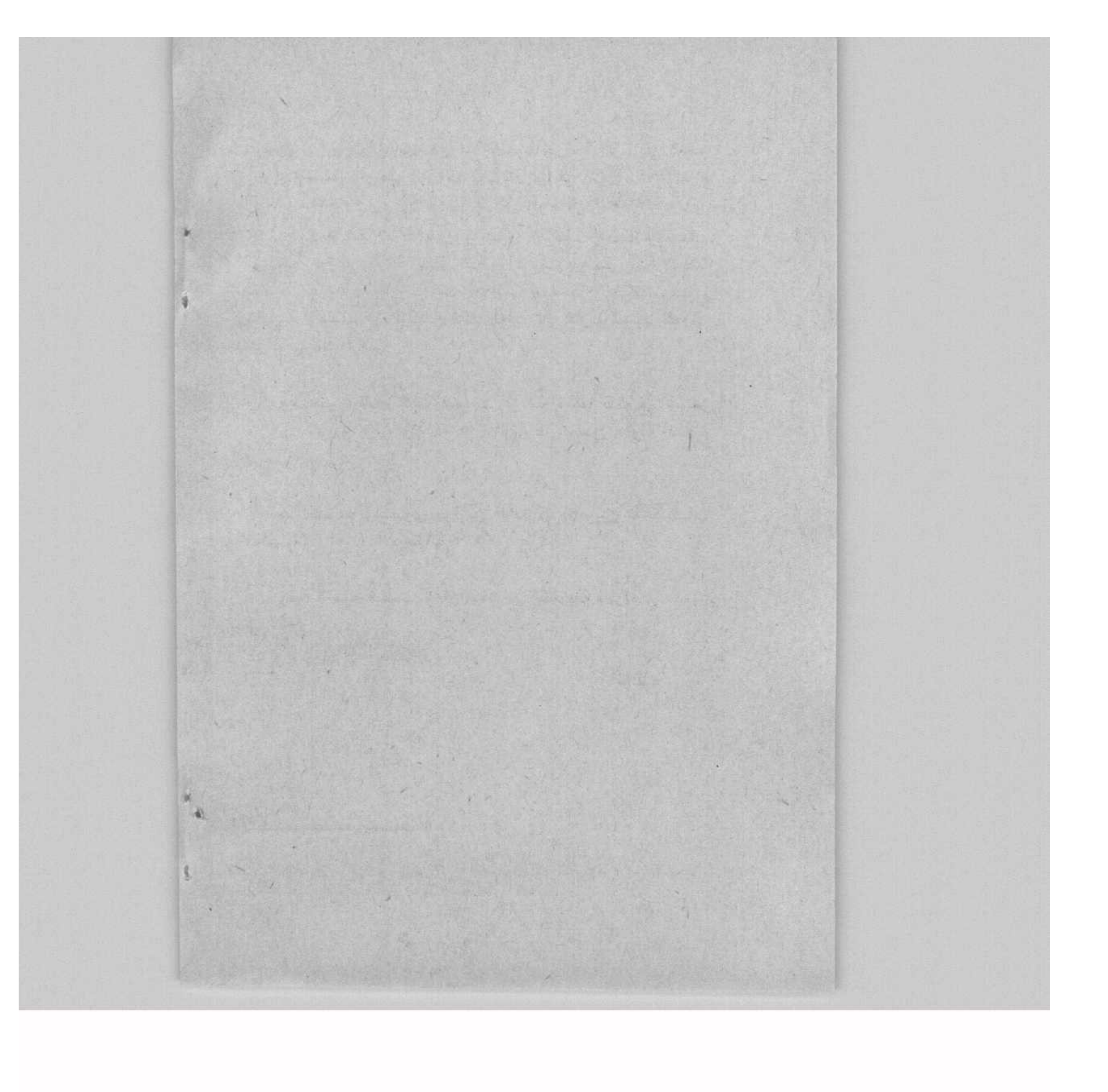
وفى النهاية أرجو أن أوفق فى التعريف بالمرأة فى عصر بنى أمية •

وبالله التوفيق

المؤلفة

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى • اقتراحات وتوصيات فى خاتمة البحث



الفصـــل الأول

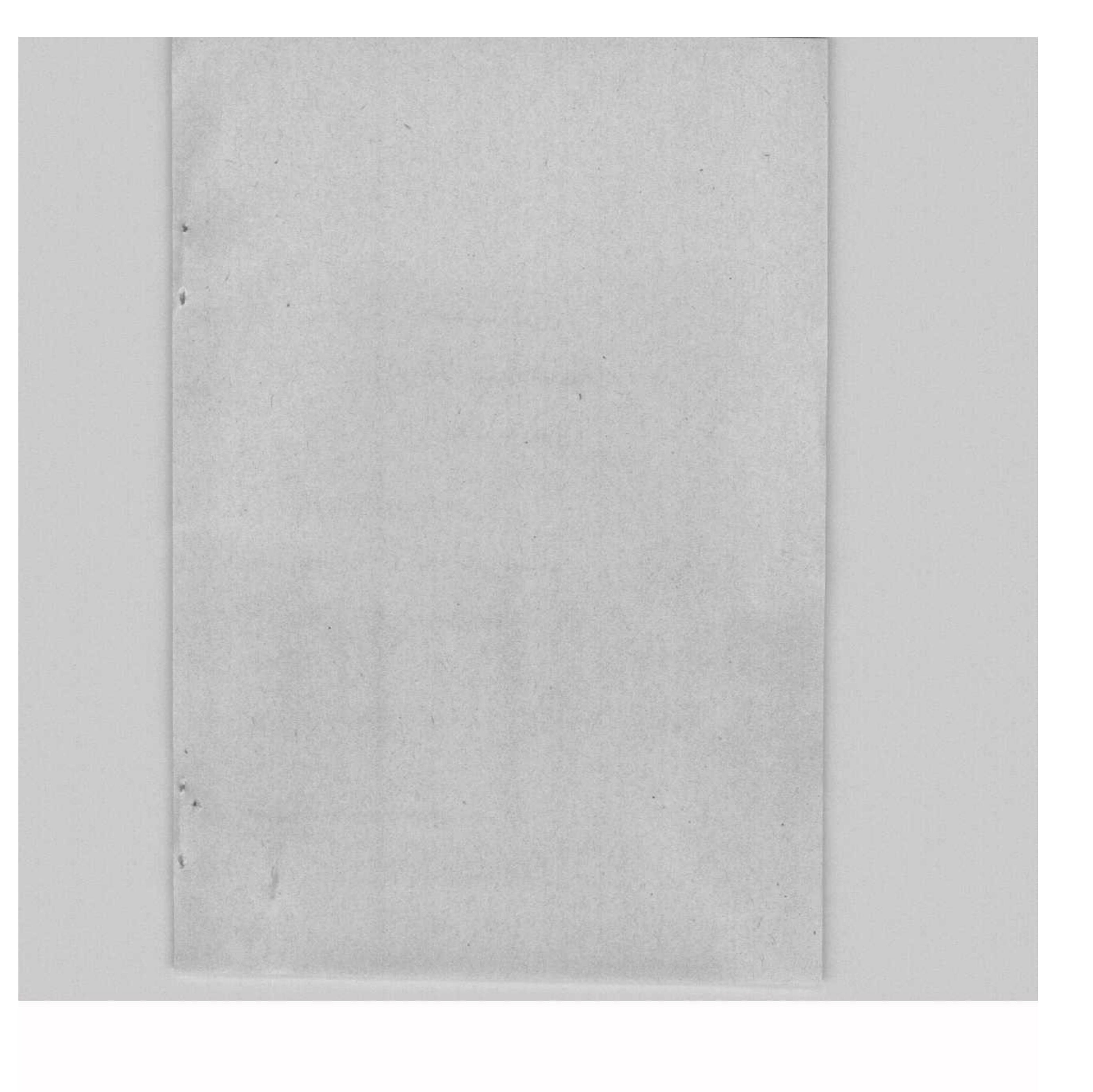
المرأة فى الحياة العامة

فى العصر الأموى

أولا : المرأة والسياسة

ثانيا : المرأة والحياة الفكرية والثقافية

ثالثا : المرأة والحياة الاجتماعية .



بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــل :

لا شك أن للبيئة تأثيرا كبيرا على الأفراد الذين يســـتظلون تحت ظلها فهى لهم بمثابة الأم وهم الأبناء ·

وسواء أكان هؤلاء الأبناء من ذوى الحس المرهف ممن يتمتعون بموهبة معينة أم ممن يفتقدون الى أى موهبة فالبيئة عامل لا ينكر أثره فى تكوين نفوسهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليـــدهم وفكرهم وميولهم وعقائدهم وأذواقهم ومثلهم العليا ·

والبيئة هى المكان أو الاقليم الذى يستقر فيه الأفراد فيعيشون فيه فترات طويلة من حياتهم أو حياتهم كلها ولها أحوال ثابتة وأخرى متغيرة · فأما الثابتة فهى الموقع والمناخ والطبيعة التى تميزها عن سواها وتطبع أهلها بخصائص وسمات خاصة بهم فهناك فرق بين أهل البادية وأهل الحضر وبين من يعيشون فى بيئة زراعية ومن يعيشون فى الصحراء ·

وأما الأحوال المتغيرة فهي الظروف والملابسات التى تجد على المكان مع تغير الزمان ، وانتقال الأزمنة من طور الى طور وما يتبع ذلك من تبدل السياسة ونظام الحكم وقيام الدول أو سقوطها أو الانتقال من الجهل الى المعرفة ومن الفقر الى الغنى ومن الوثنية الى عبادة اله واحد ·

وعلى هذا فالبيئة مكان معين فى زمان محدد · والبيئـة الأموية هى المكان الذى قامت عليه الدولة الأموية فى الفترة المحددة لحكم هذه الدولة ·

وهذه البيئة ككل البيئات كانت تعد المؤثر العـــام فى كل من يعيشون فيها ويتنفسون طبيعتها ويتأثرون بمذاهبها ٠

وقد تأثرت المرأة فى العصر الأموى بوجوه الحيـــاة المختلفة وشاركت مشاركة ايجابية فى جوانبه المختلفة كما شاركت وتشارك فى حياة كل عصر فهى الأم وهى الزوجة والحبيبة والأخت والابنة دائما ولكل دورها فى حياة مجتمعها ٠

كان للمرأة دور فى حياة عصرها السياســـية والاجتماعية والفكرية كما كان لها دور فى الحياة الفنية كشاعرة واديبة ومغنية وناقدة ٠ وملهمة للشعراء وعاملة على نمو الحركة الادبية ومساهمة فى تقدم وازدهار بعض فنون الأدب ٠

وقد انعكست صورة المرأة فى شعر الشعراء وبدا من خـلاله جمالها وأخلاقها وطبائعها ونفسيتها وحضارتها وبداوتها وترفها وتدينها أو تحللها وثقافتها وكل ما يحب أو يستكره منها ، وقد كشفت تلك الصورة عن ذوق العصر ومثله العليا ٠

أولا : المرأة والسياسة :

بدأ العصر الأموى من الناحية التاريخية سنة ٤١ هـ حين تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان واستمر معاوية فى الحكم عشرين عاما ثم توالى بعده اثنتا عشرة خليفة هم على الترتيب : يزيد بن معاوية ٦٠ - ٦٤ هـ ، معاوية بن يزيد ٦٤ - ٦٥ ، عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٨٦ هـ ، الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦ هـ ، سليمان بن عبد الملك بن مروان ٩٦ - ٩٩ هـ . عمر بن عبد العزيز بن مروان ٩٩ - ١٠١ هـ ، يزيد ابن عبد الملك ١٠١ - ١٠٥هـ ، وهشام بن عبد الملك١٠٥ - ١٢٥ هـ. الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٢٥ - ١٢٦ هـ ، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦ - ١٢٦ هـ ، ثم مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم ١٢٦ - ١٣٢ هـ . وهو آخر خلفاء بنى أمية .

وقد اختلفت السياسة فى هذا العهد عنها فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . كانت فى العهد الأول تقوم على أساس ديمقراطى شورى اتضح فى اختيار الخلفاء وفى سياستهم سياسة عادلة حازمة لا تعرف التفرقة بين الأجناس والطبقات فالناس سواسية كأسنان المشط ولا فضل لعربى على أعجمى الا بمقدار ما يتفاوتون فى الأخذ بأصول الشريعة فى العبادات والمعاملات . كانت السياسة فى العهد الأول قائمة على الدين وكان الدين ومبادؤه يهديها الى سواء السبيل ويحميها من الغى والضلالة .

أما السياسة فى العهد الأموى فقد اختلفت اختلافا كبيرا عن هذا السبيل حيث أصبح الحكم وراثيا فى الأسرة الأموية بل حاول بعض الخلفاء تسخير الدين لخدمة أهدافهم ومطامعهم .

ولان الطريقة التى وصل بها الأمويون الى الحكم لم تكن مشروعة ونظرا لما قامت عليه سياستهم من تمايز بين الطبقات وتفرقة بين الناس واحياء للعصبيات وسوء معاملة للرعية وظلم لها وغير ذلك مما نهى الاسلام عنه لما يؤدى اليه من تباغض واثارة للضغائن والأحقاد لهذه الأسباب وغيرها ساعدت السياســـة الأموية على استمرار الاحزاب التى نشأت فى الخلافات بين على ومعاوية ، وكل هذه الاحزاب معادية للحزب الحاكم الاموى ٠ وكانت هذه الأحزاب فى بدء نشأتها دينية ثم اصطبغت بالصـــبغة السياسية ، وأهمها الشيعة والخوارج والزبيرية ٠ وقد كان لها دور كبير فى الحروب الداخلية وفى اضعاف الدولة الأموية فيما بعد ٠

اشتركت المرأة فى هذه الأحزاب كما اسـهمت فى الحروب الداخلية ضد البيت الأموى والحق يقال ان (للحركة الشيعية فضل فى اظهار بعض الشخصيات النسوية المحاربة الموالية لعلى بن ابى طالب ولأهل البيتوقد امتاز هؤلاء الاديبات بجرائتهن وبلائهن فى سبيل العقيدة وبمقدرة خطابية لعلها كانت ثمرة ضرورية من ثمار ذلك العهد المقلق المتنازع الذى اعتمد على قوة السيف)(١)٠

كانت الحروب بين على ومعاوية ميـدانا فسـيحا لمواهب المحاربين والخطباء وعكرشة بنت الأطرش من النساء اللائى حملن السيف فى موقعة صفين وكانت تقف بين الصفوف تحض على قتال معاوية فى فصاحة وبلاغة تقول (أيها الناس عليكم انفســـــكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ان الجنة لا يرحل عنها من اوطنها ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها . فابتاعوها بدار لا يدوم

---

(١) ادب النساء فى الجاهلية والاسلام ١٢٠ ٠

نعيمها ولا تنصرم همومها وكـــونوا قوما مســـتبصرين فى دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم · ان معاوية دلف اليكم بعجم العرب غلف القلوب لا يفقهون الايمان ولا يدرون ما الحكمة دعاهم بالدنيا فأجابوه واستدعاهم الى الباطل فلبوه فالله الله عباد الله فى دين الله اياكم والتواكل فان ذلك ينقض عرى الاسلام ويطفىء نور الحق) (١) ·

ومن أولئك النسوة أم الخير بنت حريش ، وسودة ابنة عمارة وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عـــدى ، وأم ســـنان بنت خيثمة وغيرهن · وقد وفدن على معاوية بن أبى سفيان بعد خلافته وكن مثال القوة والشجاعة والفصاحة والبيان ·

فمن ذلك وفود سودة ابنة عماره بن الاشـــتر على معاوية وكانت سفيرة لقومها جاءت تعرض شـــكواهم على الرجل الذى أصبح خليفة عليهم دون رغبة منهم ، ولكن مادام الأمر قد صــار اليهوولى عليهم فلا مفر من الشكوى اليه معأمل ضعيف فى أن يجنبهم ظلم واليه وبطشه بهم وقتله رجالهم ولم تجبن سودة عن تهديد الخليفة تهديدا صيغ من الفاظ فى رقة الحرير (٢) · أستأذنت فأذن لها معاوية فلما دخلت اليه سلمت عليه فقال لها : كيف حالك يا بنة الأشتر ·

قالت :

بخيـــر يا أمير المؤمنين · قال لها

أنـــت القـــائلة لأخيـــك :

---

(١) طبائع النساء ص ٢٣١ ·

(٢) ن·م ٢٣٢ ·

شمر كفعل أبيك يا بن عمـــارة
يوم الطعـــان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحســـــين ورهطه
واقصـــد لهند وابنهـــا بهـوان
فقد الجيوش وسر أمـــام لوائه
قدمـــا بأبيض صـارم وســـنان

قالت : يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب فدع عنك تذكار ما قد نسى . قال : هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان أخى خفى المقام ذليل المكان ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخرا لتأتم الهـــداة به
كأنه علم فى رأســـه نـــار

وبالله أسأل أمير المؤمنين اعفائى مما استعفيته قال : قد فعلت فقـــولى حاجتك . قالت : يا أمير المؤمنين انك للنـــاس ســـيد ولأمورهم متقلد والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ويبسط سلطانك فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ويسألنا الجليلة هذا ابن ارطأة (١) قدم بلادى وقتل رجالى واخذ مالى ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فاما عزلته فشكرناك واما لا فعرفناك . فقال معاوية : اياى تهددين بقومك والله لقد هممت أن أردك على قتب أشرس (٢) فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

---

(١) احد ولاة معاوية .

(٢) قتب أشرس : القتب الرحل الصغير على قدر سنام البعير واشرس: سىء مقعب

صـلى الاله على روح تضـمن
قبر فأصبح فيه العـدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به ثمنـا
فصار بالحق والايمـان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن ابى طالب رحمه الله ٠

قال : ما أرى عليك منه أثرا ٠

قالت : بلى أتيته يوما فى رجل ولاه صدقاتنا فكان بينه وبينه ما بين الغث والثمين، فرأيته قائما يصلى ، فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ، ثم رفع رأسه الى السماء فقال : اللهم انى لم آمره بظلم خلقك ولا ترك حقك ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه (بسـم الله الرحمن الرحيم قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسـوا الناس أشياءهم) (١) (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) (٢) ٠ اذا أتاك كتابى هـذا فاحتفظ بما فى يديك حتى يأتى من يقبضه منك والسلام ٠

فعزله يا أمير المؤمنين ما حزمه بحزام ولا ختمه بختم فقال معاوية : أكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت : الى خاصة أم لقومى عامة ؟

---

(١) الاعراف آية ٨٥ ٠
(٢) بقية الآية ٨٥ ، ٨٦ من سورة هود ٠

قال : ما أنت وغيرك · قالت : هى والله الفحشاء واللؤم · ان يكن عدلا شاملا ، والا يسعنى ما يسع قومى ·

قال : هيهات لمظكم (١) ابن أبى طالب الجراة على السلطان فبطيئا ما تعظمون غركم قوله :

فلو كنـــت بوابا على باب جنـــة
لقلت لهمـــدان ادخلوا بســـلام

الخ اكتبوا لها بحاجتها ·

كما وفدت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهى عجوز كبيرة فلما رآها معاوية قال لها : مرحبا بك وأهلا يا عمة فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : يابن أخى لقد كفرت يد النعمة وأسأت لابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من أبائك ولا سابقة فى الاسلام بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم فأتعس الله منكم الجدود ، وأضرع منكم الخدود ورد الحق الى أهله ولو كره المشركون وكانت كلمتنا هى العليا ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فوليتم علينا من بعده تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أقرب اليه منكم وأولى بهذا الأمر فكنا فيكم بمنزلة بنى اسرائيل فى آل فرعون· وكان على بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى فغايتنا الجنة وغايتكم النار فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة وأقصرى عن قولك مع ذهاب عقلك ، اذ لا تجـوز شهادتك وحدك فردت عليه ردا أفحمه (٢) · ثم التفتت الى معاوية فقالت: والله ما جرأ على هؤلاء غيرك وان أمك القائلة فى قتل حمزة:

---

(١) لمظكم : من التلمظ وهو تحريك اللسان فى الفم بعد الاكل والمراد عـودكم

(١) العقد الفريد حـ ٢ وطبائع النساء ٢٣٩ ، ٢٤٠ ·

نحن جزيناكم بيــــوم بــدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لى عن عتبة من صـــبر
فشــكر وحشى على دهــرى
حتى ترم أعظمى فى قبرى

فأجابتها بنت عمى وهى تقول :

خـــزيت فى بدر وبعــد بدر
يا بنــة جبــار عظيم الكفر

فقال معاوية : عفا الله عما سلف يا عمة · هاتى حاجتك قالت: مالى اليك حاجة وخرجت عنه (١) ·

وكتب معاوية الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقى برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيرا وبالشر شرا بقولها فيه · فلما ورد عليه كتابه ركب اليها فأقرأها كتابه · فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها : يا أم الخير ان أمير المؤمنين كتب الى أنه مجازينى بالخير خيرا وبالشر شرا فمالى عندك ؟ قالت : يا هذا لا يطمعنك برك فى أن أسرك بباطل ، ولا تؤنسك معرفتى بك أن أقول فيه غير الحق فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها

---

(١) العقد الفريد ٢ ، طبائع النساء ٢٣٩ ، ٢٤٠ ·

مع الحرم ثم أدخلها فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ٠

فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ٠ بحق ما دعوتنى بهذا الاسم ٠

قالت : يا أمير المؤمنين يعيذك الله من دحض المقال وما تردى عاقبته ٠ قال : ليس هذا أردنا ٠ أخبرينا كيف كان كلامك اذ قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن زورته قبل ، ولا زورته بعد وانما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة فان أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت، فالتفت معاوية الى جلسائه وقال: أيكم يحفظ كلامها فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين قال : هات ٠ قال كأنى بها وعليها برد زبيدى كثيف بين النسيج ، وهى على جمل أرمك (١) وقد أحيط حولها حواء وبيدها سوط منتشر الضفيرة وهى كالفحل يهدر فى شقشقته تقول : يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم ان الله قد أوضح لكم الحق وأبان الدليل وبين السبيل ورفع القلم ولم يدعكم فى عمياء مدلهمة فأين تريدون رحمكم الله ؟

أفرارا عن أمير المؤمنين أم فرارا من الزحف أم رغبة عن الاسلام أم ارتدادا عن الحق ٠

أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) (٢) ٠ ثم رفعت رأسها الى السماء

---

(١) ارمك : رمادى

(٢) سورة محمد : ٣١ ٠

وهى تقول اللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبـــة وبيدك يارب أزمة القلوب فأجمع اللهم بها الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى واردد الحق الى أهله هلموا رحمـــكم الله الى الامام العادل والرضى التقى والصديق الأكبر انها : أحن (١) بدريه، وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات بنى عبد شمس ثم قالت (فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون) (٢) ٠ صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدرى اين يسلك بهـا من فجاج الأرض باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضـــلالة بالهدى ٠ وباعوا البصيرة بالعمى وعما قليل ليصبحن نادمين حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الاقالة ولات حين مناص ٠

انه من ضل زاله عن الحق وقع فى الباطل ، ألا ان أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها واستطابوا الآخرة فسـعوا لها فالله الله أيها الناس تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظـالمون وتقوى كلمة الشيطان ، فالى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وابن سبطيه خلق من طينته وتفرع من نبعته وخصه بسره وجعله باب مدينته وأعلم بحبه المسلمين وأبان ببغضه المنافقين ها هو ذا مفلق الهام ومكسر الاصنام ، صلى والناس مشركون وأطاع والناس كارهون فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزى بدر وأفنى أهل أحد وهزم الأحزاب وقتل الله به أهل خيبر

---

(١) احن : أحقاد وبدرية نسبة الى بدر وتريد أن معاوية باثارته الحرب على على انما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر ٠

(٢) سورة التوبة آية ١٢ ٠

وفرق به جمع هوازن ، فيالها من وقائع زرعت فى قلوب نفاقا وردة وشقاقا ، وزادت المؤمنين ايمانا وقد أجتهدت فى القول وبالغت فى النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله ·

فقال معاوية : يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام الا قتلى ، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك · قالت : والله ما يسوؤنى أن يجرى قتلى على من يسعدنى الله بشقائه · قال : هيهات يا كثيرة الفضول ماذا تقولين فى عثمان بن عفان رحمه الله ؟ قالت : وما عسيت ان اقول فى عثمان استخلفه الناس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون!

قال معاوية : يا أم الخير هذا والله أصلك الذى تبنين عليه (١)

قالت : لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ، ما أردت لعثمان نقصا ، ولكن كان سابقا الى الخير ، وانه لرفيع الدرجة غدا ·

قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله (٢) ؟ · قالت : وما عسى أن أقول فى طلحة ؟ اغتيل من مأمنه وأتى من حيث لم يحذر ·

---

(١) يريد ان سوء رأيها فى عثمان هو الذى دفعها الى مناصرة على

(٢) هو أحد السابقين الى الاسلام وهو عاشر عشرة بشرهم رسول الله بالجنة وسادس ستة اختارهم عمر بن الخطاب ليكون منهم الخليفة بعده ، وأول صحابى بايع عليا ثم استحال رأيه وانضم الى جند عائشة يوم الجمل وقتل فيها ·

(٣) كان أمر الزبير شبيها بأمر طلحة · وكان قد انضم الى جند عائشة فأرسل يذكره لتقابلنه ـ يريد تقاتل عليا وانت ظالم له) فانثنى عن الوقعة فرارا من الباطل وعودا الى الحق · فلما انتهى الى واد يقال له وادى الباع أخذه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له عمر بن جرموز ·

وقد وعده رسول الله الجنة · قال : فما تقولين فى الزبير ؟ قالت : وما أقول فى ابن عم رسول الله وحواريه ؟ وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة · وقد كان سباقا الى كل مكرمة فى الاسلام وأنا أسألك بحق الله يا معاوية فان قريشا تحدثت أنك أحلمها ـ أن تسعنى بفضل حلمك وأن تعفينى من هذه المسائل ، وتسألنى عما شئت من غيرها (١) ·

ومن أشهر سيدات آل البيت اللائى أسهمن فى السياسة كانت عقيلة بنى هاشم السيدة زينب بنت على بن أبى طالب أخت الحسن والحسين رضى الله عنهما وابنة بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء واشتراكها فى كربلاء لا ينسى (٢) ·

حتى أطلق عليها بعض المؤرخين بطلة كربلاء · لقد شهدت مقتل الحسين ذلك المقتل الذى ترك آثارا هى ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة (٣) ·

هنا بدت زينب فى نفر من الصبية وجمع من الأرامل والثواكل. عاكفات على تلك الأشلاء يلتمسن فيها ذراع ولد أو حبيب أو زوج عزيز أو قدم أخ غال (٢) وصاحت يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء مرسل بالدماء مقطع الأعضاء يا محمداه هذه بناتك سبايا وذريتك مقتله (٤) ·
وواجهت ابن زياد الأمير الطاغية فاحتقرته وهى أسيرة مع

---

(١) العقد الفريد ٢ · طبائع النساء ص ٢٢٨ ·
(٢) تراجم سيدات بيت النبوة ٦٨٧ ـ ٧٩٤ ·
(٣) الطبرى حـ ٥ ·
(٤) نفسـه ·

السبايا ولم تجب على سؤاله : من أنت ؟ ووجهت الجواب الى احدى خدمها فقالت : هذه زينب بنت فاطمة · فقال : الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم فكان جواب الشريفة الاسيرة (الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه صلى الله عليه وآله ، وطهرنا من الرجس تطهيرا لا كما تقول أنت ، انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمد لله ·

قال الطاغية : كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

قالت : مستعلية على الظالمين « كتب عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون اليه ، فتختصمون عنده » ·

وموقف آخر مع من أصبح حاكما للمسلمين وهو يزيد بن معاوية ·· لقد سيقت اليه السيدة زينب مع الأسرى ورءوس الشهداء فكشف عن ثنايا الشهيد الامام الحسين وتكلم ببيت من الشعر فبكت نساء آل البيت · ولكن السيدة زينب ردت عليه بقولها « صدق الله يا يزيد اذ قال « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانو بها يستهزئون » (١) ثم قالت أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا باطراف الأرض وأكتاف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الاسارى أن بنا هوان على الله وأن بك عليه كرامة ؟ » ·· وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك فشمخت بأنفك ونظرت فى عطفيك جذلان فرحا حين رأيت الدنيا مستوثقة لك والأمور متسقة عليك · ان الله أمهلك فهو قوله « ولا يحسبن الذين كفروا ، انما نملى لهم خير لأنفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » (٢) ثم قالت: أين

---

(١) سورة الروم آية ١٠ ·

(٢) سورة آل عمران ١٧٨

العدل يابن الطلقاء تحذيرك بناتك وامائك ، وسوقك بنات رسول الله وآله كالاسارى ، لقد هتكت ستورهن وأهملت أصـوانهن مكتئبات تجرى بهن الأباعر وتحدوا بهم الأعادى من بلد الى بلد يتشوفهن القريب والبعيد وليس معهن قريب من رجالهن ٠

ثم قالت : وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين ، ان كان الحكم ربنا والخصم جدنا وجوارحك شاهدة عليك اينا شر مكانا وأضعف جندا ٠

ولقد أمر الحاكم بترحيل الأسرى وفيهم السـيدة زينب الى المدينة ولكنها انطلاقا من الحق الذى استمسكت به بدأت تروى للناس ما شاهدت من المجازر وتفضح الحكم القائم ، وهى بهذا تتمثل بقول الله تعالى « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » (١)٠ وخوفا مما يمكن أن يحدث من ثورة أو انقلاب رأى القوم تشتيت الأسرى بتوزيعها على البلدان ولو أن جلهم نساء وليس معهن من الرجال سوى الأطفال فرفضت السيدة زينب تنفيذ هذا القرار وقالت « الله أعلم ما صار الينا قتل خيرنا وسيق الباقون كما تساق الأنعام وحملنا على الأقتاب ، فوالله لاخرجنا وان أريقت الدماء » ٠

كذلك شاركت نساء الخوارج فى السياسة والتحـريض على البيت الأموى ومن أمثلة ذلك (لما خرج شبيب بن يزيد قائدهم على عبد الملك بن مروان ٠ كانت غزالة الحرورية تتعاقب وزوجها على قيادة الجيش بشجاعة وبسالة تذكران على الأيام وقد خرج الحجاج فى جيش كثيف عدته أربعة آلاف مقاتل وهو مستكمل الزاد والعتاد ، وخرجت غزالة فى أربعين من جندها فواجه جلدا لا قبل له به وبلاء

---

(١) سورة النساء آية ١٤٨ ٠

خلع قلبه من الفزع وولى الأدبار بعد أن شكته غزالة بسنانها بين كتفيه وقد عيره بذلك عمران بن حطان بعد أن لج الحجاج فى طلبه اذ كتب اليه : (١)

أســـد على وفى الحروب نعامة
فتخاء تنفر من صغير الصافر
هلا برزت الى غزالة فى الضحى
بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت غزالة جمعه بعســاكر
تركت كتائبه كأمس الدابر (٢)

وكذلك كانت أم شبيب من الشجاعة والفروسية بمكان وفيها يقول الشـــاعر :

أم شـــبيب ولد شـــبيبا
هل تلد الذئبة الا ذيبــا (٣)

وقيل ان الحجاج أتى بامرأة من الخوارج فقالت الخارجية لقد كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك يا حجاج · قال : ومن هو صاحبى قالت : فرعون استشارهم فى موسى عليه السلام فقالوا : أوجه وأخاه (٤) ·

وأتى الحجاج بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر

---

(١) الاغانى ١٨/١١٦ ، الحافظ الذهبى ١/٨٧ ·
(٢) الاغانى ١٨/١١٦ ·
(٣) مروج الذهب ٣/١٤٧ ·
(٤) المسطرف : ٥٦

اليه فقيل لها الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين اليه فقالت : انى لأستحى أن أنظر الى من لا ينظر الله اليه (١) ٠

وتظهر شهامة المرأة العربية حين سار الحجاج بن يوسف الثقفى الى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق وأرغم أهلها على طلب الأمان وانضم اليه بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوى قرباه وبقى عبد الله بن الزبير فى عدد قليل من أنصاره ، ولما أيقن أنه مقتول لا محالة دخل على أسماء بنت أبى بكر فقال : يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ٠ والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ فقالت : أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم انك على حق واليـــه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية يلعبون بها وان كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك ٠ وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن ٠ قال عبد الله يا أماه أخاف ان قتلنى أهل الشام ان يمثلوا بى ويصلبونى: قالت : يابنى ان الشاة لا تتألم بالســـلخ بعد ذبحها فامض على بصيرتك واستعن بالله (٢) فقبل رأسها وقال : هذا رأيى والذى خرجت به الى يومى هذا ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعانى الى الخروج الا الغضب لله وان تستحل حرماته ، ولكننى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة فانظرى يا أماه فانى مقتول فى يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر لله فان ابنك لم يتعود اتيان منكر ولا عملا بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان

---

(١) نفسه ٥٦ ، ٥٧

(٢) حسن ابراهيم ١ : ٥٤٦ ، أشهر النساء فى التاريخ ص ٢٠٤ ، مروج الذهب حـ ٣ ص ١٢١ ٠

ولم يتعمد فى ظلم مسلم ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى ·
اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسى ولكنى أقوله تعزية لأمى حتى لا تسلو عنى ·

قالت : لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلا ان تقدمتنى احتسبتك
وان ظفرت سررت بظفرك أخرج حتى أنظر ماذا يصير أمرك اللهم
قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبنى فيه ثواب الصابرين
الشاكرين · امض على بصيرتك وادن منى حتى أودعك ودنا منها
فتعانقا وقبلها ·

وامتشق عبد الله سيفه وتبعه أنصاره على قلتهم وحملوا على
جند الحجاج ولم يكن هناك تكافؤ فى هذه الموقعة التى انجلت سريعا
عن قتل عبد الله بن الزبير ومن معه جميعا · وكانت هذه المعركة
على مرمى البصر من أمه ورأته يقع صريعا فانحنت تقبله وتضمه الى
صدرها وهو جثة ساخنة تنزف منها الدماء ·

وأمر الحجاج جنده أن تنحى أمه وتعلق جثته أياما ثلاثة فى
مكة · وظلت أسماء فى مكانها أمام جثمان ابنها المصلوب لم تبرحه
ثم أرسلت الى الحجاج من يقول له على لسانها : أما أن لهذا الفارس
أن يترجل ، ثم أخذت جثمان ابنها الشهيد ودفنته فى مقابر مكة ولم
تذرف عليه دمعة بل تحجرت الدموع فى مآقيها وانفطر قلبها حزنا
على وحيدها ·

وظلت مضرب الأمثال على قوة الأخـــلاق والعزم والصـــبر
والشجاعة مضحية بعاطفة الأمومة فى سبيل الشرف والحق(١) ·

---

(١) أشهر النساء فى التاريخ : ٢٠٥ ·

ومن شهيرات النساء اللائى أسهمن فى السياسة فى العصر الأموى زوجات بعض الخلفاء مثل أم البنين زوجة الوليد بن يزيد ابن عبد الملك وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر وكان لها مكانة ملحوظة فى قصر الوليد الذى كان يستشيرها فى مهام أمر الدولة (١) • ومما يروى ويدل على درايتها بشئون البلاد وفصاحتها وحسن رايها ما جرى فى حديثها مع الحجاج بن يوسف حين أذن الوليد بمقابلتها اياه قالت (ايه يا حجـــاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ، أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد فى الاسلام • وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فاغاثك بأهل الشام وأنت فى أضيق من القرن فاظلتك رماحهـــم وأنجاك كفاحهم • وطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن وبعنه فى الأسواق فى أرزاق البعوث اليك (٢) •

(١) حسن ابراهيم : ١ : ٥٤٧ •

(٢) مروج الذهب حـ ٣ ص ١٦٨ •

ثانيا : المرأة والحياة الفكرية والثقافية :

جدت عوامل كثيرة على العرب منذ البعثة المحمـــدية أدت بالتدريج الى نمو العقلية العربية واتساع آفاقها مما أدى الى تطور فى الحياة الفكرية وتقدم وازدهار للثقافة فى عصر بنى أمية ٠

ومن أهم مظاهر هذا التطور العناية الكبيرة بالتعليم ٠ ففى هذا العصر ظهرت طبقة المعلمين الذى يعلمون الناشئة الشعر والقرآن وما يتصل بهما من علوم العربية وأصول الدين ٠

وكان منهم معلمون لأولاد الخاصـــة من خلفـــاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم ومعلمون لأولاد العامة (١) فى الكتاتيب ٠

وكانت المساجد قاعات للتعليم والبحث والجدل والمناظرة فى اللغة وعلوم الدين والعقيدة والسياسة وغير السياسة (٢) ٠

والباحث فى ثقافة هذا العصر يجدها واسعة متنوعة تشمل الثقافة القديمة الأصيلة التى تعتمد على الشعر الجاهلى ومعرفة أيام العرب وأنسابها وتقاليد الجاهلية ٠وكانت العناية الموجهة الى هذه الثقافة الأصيلة كبيرة فكثر المتخصصون فى معرفة الشـــعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهليـــة وأيامها ٠ كذلك وجهت عناية كبيرة الى تقويم اللسان العربى فنشـــأ علم النحو العربى ٠

---

(١) البيان والتبين ١ / ٢٥١ ، ٢ /٣٢٣ ٠

(٢) البيان والتبين ٢ / ٣٢٢ ، ٢ / ٩٨ ، المعارف : ٢٤٨ ٠

والثقافة الثانية هى الثقافة الاســـلامية التى بدت فى القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزاوته والفتوح الاسلامية · كما ازدهرت العلوم الاسلامية الخالصة كالفقه والتفسير والحديث ·

وعنوا بما عند الأمم الأخرى من معارف وثقافات فنقلوها الى العربية · واهتموا بالترجمة وأول من وجه اهتماما اليها هو خالد ابن يزيد بن معاوية · يقول الجاحظ (هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء) (١) · أما أهم الثقافات التى تأثر بها العرب وأخذوا عنها فهى الثقافة الفارسية فى الأدب والحكمة وأما الثقافة اليونانية فيبدو تأثيرها فى المنطق وعلوم الفلســـفة والطب والكيمياء الى غيرها من العلوم العقلية العملية ·

ومن الظواهرالواضحة فى هذا المجتمع اشـــتراك المرأة فى الحركة الثقافية وتجاوبها معها ، فنجدها أقبلت على العلوم الدينية من البعثة المحمدية وطلبت الشريعة والفقه والحديث فكان من المسلمات راويات للحديث يأخذ عنهن الرجال كالسيدة عائشة (٢) وكان على ابن أبى طالب قد تلقى الحديث على مولاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقوم على خدمته هى ميمونة بنت سعد (٣) وعد محمد ابن سعد فى طبقاته أكثر من سبعمائة راوية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الثقاة من أصحابه ، وأخذ الرواة عنهن ·

وكذلك فعل ابن حجر فى كتابه الاصابة على أنه ذكر ثلاثمائة

---

(١) البيان والتبين ١/٢٢٨ ·

(٢) الاصابة : ٨/٤٠ ·

(٣) الاصابة : ٨/١٧٣ ·

واثنتين وعشرين صحابية روين عن الرجال وروى عنهن الرجال فى كتابه تهذيب التهذيب (١) ٠

وألف الحافظ الذهبى كتابه (ميزان الاعتدال فى نقد الرجال) قال فيه وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها (٢) ٠

وهذه ظاهرة واضحة كل الوضوح فالمرأة متى صلحت كانت أخلص عقيدة وأصدق حبا وورعا من الرجال وهى تجعل جل همها فى الحياة الدين فلا تحيد عنه ولا تنحرف عن مبادئه وتكون مخلصة صادقة فى روايتها وفى فعلها والأمثلة على ذلك تكاد لا تحصى ٠

وفى عصر بنى أمية تثقف كثير من النساء بالثقافة الدينية وظهر منهن الزاهدات وعد الجاحظ فى بيانه منهن رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة أشيم ، ومن نساء الخوارج البلجاء وغزالة وقطام وحمادة وكحيلة ، ومن نساء الغالية ليلى الناعطية وصدوف وهنـــد (٣) ٠

ووجدنا بعض النساء يعظن الشعراء مثل سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، فقد كانت جالسة فى المسجد فرأت عمر بن أبى ربيعة فى الطواف ، فأرسلت اليه اذا قضيت طوافك فأتنا ، فلما قضى طوافه أتاها فحادثها وأنشدها ، فقالت : ويحك يا أبن أبى ربيعة ما تزال سادرا فى غيك فى حرم الله متهتكا تتناول بلسـانك ربات الحجال من قريش ٠فقال : دعى هذا عنك أما سمعت ما قلت فيك ؟ قالت : وما قلت ؟ فأنشدها :

---

(١) تهذيب التهذيب : ٢٩٧/١٢ _ ٤٩٢ ٠

(٢) ميزان الاعتدال ٦٨٢/٢ ٠

(٣) البيان والتبيين ٣٦٤/١ ٠

أحن اذا رأيت جمـــال ســـعدى
وأبكى اذا رأيت لهـــا قرينـــا

أســـعدى ان أهلك قـــد أجـدوا
رحيـــلا فانظـــرى ما تأمرينا

قالت : آمرك بتقوى الله وترك ما أنت فيه (١) ٠

وذكر صاحب (العبر فى خبر من غبر) أســـماء النســـاء الشهيرات فى علوم الدين فى الجزء الأول من كتابه (٢) ٠ فقال عن الدرداء الأوصابية الحميرية المتوفاة ٨١ هـ (وكان لها حظ من العلم والعمل ولها حرمة زائدة بالشام) ٠ وأشار الى عمرة بنت عبـــد الرحمن بن عوف ت ٩٨ هـ بقوله : (انها فقيهة كانت فى حجر عائشة فأكثرت منها) ، ونوه بمعاذة العدوية المتوفاة ١٠١ هـ فى البصرة وبعلمها فى الفقه كما نوه بعبادتها ٠

ويلاحظ أن عدد الشهيرات فى هذا المجـــال لهذا العصر كان قليلا ٠ أما أهم مجالات المرأة فكان صـــناعة الأدب ٠ ولعت المرأة بالشعر والأدب والبيان فكان منهن الشـــاعرة والناقدة والمتذوقة للموسيقى والغناء ٠ وتألقت أسماء سيدات فضليات فى الحيـــاة الأدبية فكانت عائشة بنت طلحة (٣) أديبة ناقدة ٠ ذكر صـــاحب الأغانى أنها وفدت على هشام بن عبد الملك فقال لها : ما أوفدك ؟

---

(١) الاغانى ١٧ / ١٥٧ دار الكتب ٠

(٢) العبر فى خبر من غبر للحافظ الذهبى ٠

(٣) أمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق وخالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما ٠

قالت : حبست السماء المطر . ومنع السلطان الحق . قال : فانى أبل رحمك وأعرف حقك ثم بعث الى مشايخ بنى أمية . فقال : ان عائشة بنت طلحة عندى فاسمروا عندى الليلة فحضروا فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وأيامها الا افاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا غار الا سمته . فقال لها هشام : اما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتى عائشة . فأمر لها بمائة ألف درهم وردها الى المدينة (١) وذكر صاحب الأغانى أنها لما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة ، وتخرج الى مال لها بالطائف عظيم وقصر لها فتتنزه وتجلس فيه بالعشيات تتناضل الرماة فمر بها النميرى الشاعر ، فسألت عنه فنسب لها ، فقالت ائتونى به فقالتله لما أتوها به : أنشدنى مما قلتفى زينب(٢) فامتنع وقال : ابنة عمى وقد صارت عظاما بالية قالت : أقسمت لما فعلت فأنشدها قوله :

نزلن بفخ (٣) ثم رحن عشية
يلبين للرحمن معتمرات

يخبئن أطراف الأكف من التقى
ويخرجن شطر الليل معتجرات

ولما رأت ركب النميرى أعرضت
وكن من أن يلقينه حذرات

---

(١) الاغانى ١١ / ١٨٩ _ ١٩٠ دار الكتب .

(٢) أخت الحجاج بن يوسف الثقفى .

(٣) فخ : وادى بمكة .

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت
به زينب فى نسوة خفرات

فقالت : والله ما قلت الا جميلا ، ولا وصفت الا كرما وطيبا وتقى ودينا أعطوه ألف درهم ٠فلما كانت الجمعة الأخرى تعرض لها فقالت : على به فجاء ٠ فقالت : انشدنى من شعرك فى زينب فقال : أو أنشدك من قول الحارث (١) فيك ؟ فوثب مواليها ٠ فقالت: دعوه فانه أراد أن يستقيد لابنة عمه هات فانشدها :

ظعن الأمير بأحسن الخلق
وغدوا بلبك مطلع الشرق

وتنوء تثقلها عجيزتها
نهض الضعيف ينوء بالوسق

ما صبحت زوجا بطلعتها
الا غدا بكواكب الطلق

قرشية عبق العبير بها
عبق الدهان بجانب الحق

بيضاء من تيم كلفت بها
هذا الجنون وليس بالعشق

قالت : والله ما ذكر الا جميلا ذكر انى اذا صبحت زوجا بوجهى

---

(١) الحارث بن خالد المخزومى من شعراء الغزل فى عصر بنى أمية ٠

غدا بكواكب الطلق ، وأنى غـــدوت مع أمير تزوجنى الى الشرق
اعطوه ألف درهم واكسوه حلتين ولا تعد لاتياننا يا نميرى (١) ٠

وكذلك كانت عمـــرة الجمحية التى كان يهواها أبو دهبل
الجمحى الشاعر روى صاحب الأغانى أنها كانت امرأة جزلة يجتمع
اليها الرجال للمحادثة وانشاد الشعر والاخبار (٢) ٠

وكانت سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما محبة للشعر كما
كانت ناقدة ألقى اليها مقاليد الحكم بين أمراء الفن فى الشعر والغناء
فى عصرها ٠ وقد فرضت شخصيتها الفريدة وبهرت عصرها بذوقها
الفنى الأصيل الذى هيأ لها أن تكون ذات بصر دقيق بفن القول وفقه
لأسرار العربية فى الأداء (٣) ٠ كما كانت الأصالة هى الطابع المميز
لها ذوقا وحسا وأوافق د٠ بنت الشاطىء فى أن مكانة السيدة سكينة
فى النقد وسيطرتها الأدبية كانت لذوقها وثقافتها ولم تكن خضوعا
لجمالها كما رأى د٠ زكى مبارك ٠ كذلك لم يكن شرفها العالى هو
الذى ألقى اليها مقاليد الحـــكم الأدبى وأخضع لها الشـــعراء
والا لشاركتها فى مكانتها هذه أختها فاطمة وبنات عمها الحسن
حفيدات السيدة فاطمة الزهراء وســـليلات النبـــوة (٤) ٠ كانت
«سيطرتها الحقيقية ترجع الى علو كعبها فى فن القول وحساسيتها
المرهفة فى تذوق الشعر وادراكها البصير لمواطن التأثير ودوافع

---

(١) الاغانى ١١ / ١٩١ الدار ، الاغانى ٣ / الدار مع تغيير فى الفاظ
الشعر يوم طلق : أى مشرق ٠
(٢) الاغانى ١١٦/٧ الدار / جزلة : أصيلة الرأى ٠
(٣) تراجم سيدات بيت النبوة ١٠١٨ ٠
(٤) ن٠م ص ١٠١٩ ٠

القول وأسرار البلاغة والبيان · ولولا أنها كانت نادرة عصرها بصرا بالشعر وفقها للعربية لما اعترف لها التاريخ الأدبى بمثل تلك المكانة وهو الذى أسقط شعرها من ديوان الأدب وجحد شاعريتها وشاعرية الاناث مثلها الا أن تكون راثية (١) ·

كانت سكينة ناقدة عصرها او كما يطلق فى عصرنا الحديث صاحبة صالون أدبى وأخبار حكمها على الشعراء تدلل على دقة نقدها وعلو مكانتها بين أدباء عصرها ·

أنشدها الحارث بن خالد :

ففرغن من سبع وقد جهدت
أحشاؤهن موائل الخمر

فقالت : أحسن عندكم ما قال ؟ قالوا : نعم فقالت : وما حسنه؟ فوالله لو طافت الابل سبعا لجهدت أحشاؤها (٢) ·

ومن ذلك ما رواه صاحب الأغانى أن جريرا والفرزدق وكثيرا ونصيبا اجتمعوا فى ضيافة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فمكثوا أياما ثم أذنت لهم فدخلوا عليها فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم ، ثم أخرجت وصيفة لها قد روت الأشعار والأحاديث فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال ها أنذا · قالت أنت القائل :

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة ١٠٢٠ ·
(٢) الاغانى ٣/٣٢٠ ·

همـــا دلتـــانى من ثمانيين قامة
كما انحط باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا
أحى يرجى أم قتيـــــل نحاذره ؟

فقلت ارفعوا الأمراس لايشعروا بنا
وأقبلت فى أعجـــــاز ليل أبادره

أبـــادر بوابين قد وكـــلا بنـــا
وأحمر منساج تبص مسامره (١)

قال : نعم • قالت : فما دعاك الى افشاء سرك وسرها هلا سترت عليك وعليها • خذ هذه الألف والحق بأهلك ثم دخلت على مولاتها وخرجت برسالتها فقالت : أبكم جرير ؟ قال : ها أنذا • قالت : أنت القائل :

طرقتك صـــائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بســــــلام

---

(١) الابيات بالديوان حـ ١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ بترتيب يخالف ما ورد بالاغانى •

ـ يقول انهما هما دلتاه من علو ثمانين قامة وبدا كأنه البازى الذى انقض وهو أسود الريش كاسر ينحدر فى طلب الفريسة ـ وفى الـــديوان الاسباب بدلا من الامراس ـ ويذكر فى الثالث انه تولى هاربا فى اخر الليل المساج : الخشب تئط : تصورت وتصر • ورويت تبص •

تجرى السـواك على أغـر كأنه
برد تحـدر من متون غمـام

لو كان عهدك كالذى حـدثتنا
لو صلت ذاك وكـان غير لمام

انى أواصـل من أردت وصاله
بحبـال لا صـلف ولا لوام

قال : نعم · قالت : أولا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها أنت عفيف وفيك ضعف · خذ هذه الآلف والحق بأهلك · ثم دخلت الى مولاتها وخرجت فقالت : أيكم كثير ؟ قال : ها أنذا · قالت أنت القائل :

وأعجبنى ياعز منـك خـلائق
كرام اذا عـد الخـلائق أربع

دنوك حتى يطمع الطالب الصـبا
ودفعك أسـباب المنى حين يطمع

وقطعك أسباب الكريم ووصلك الـ
لئيم وخـلات المكـارم ترفع

فوالله ما يدرى كـريم مماطـل
أينساك اذ باعدت أو يتضرع

قال: نعم· قالت : ملحت وشكلت خذ هذه الثلاثة آلاف والحق

بأهلك · ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب قال ها أنذا · فقالت : أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب
لقلت بنفسى النشأ الصغار

بنفسى كل مهضوم حشاها
اذا ظلمت فليس لها انتصار

قال : نعم · فقالت : ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا خذ هذه الألف وألحق بأهلك · ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل مولاتى تقرئك السلام وتقول لك : والله مازلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بوادى القرى انى اذن لسعيد

لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الألف وألحق بأهلك (١)·

ونلاحظ أنها انكرت شعر الفرزدق لأنه يفشى سره وسرمحبوبته

---

(١) الاغانى ١٦ / ١٦١ ـ ١٦٣ ·

وهناك أخبار أخرى وردت بالأغانى تزعم انها طربت لغناء الغريض بشعر عمر بن أبى ربيعة فيها ·

وأثنت على جرير لعفة شعره وان أنكرت ضعفه واسلوبه فى مخاطبة زائرته · فهذا المجتمع على الرغم من تحضره مازال قريب العهد بالبداوة وقد تأثر بالاسلام فهو يقدس العفة ويحث عليها · وهو وان كان يعجب بالفن الجميل ففى الغالب أن ذوقه يميل الى الفن الملتزم ·

وأعجبتها أبيات كثير فى وصف صاحبته لما لمحت فيها من دقة التعبير عن عزة الأنثى ·

ومن ذلك أيضا أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية كثير وراوية جميل وراوية نصيب وراوية الأحوص فأفتخر كل رجل منهم بصاحبه ، فحكموا سكينة ابنة الحسين لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر · فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القـــلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بســـلام

أى ساعة أحلى من الطروق ؟ قبح الله صاحبك وقبح شعره ثم قالت لراوية كثير : أليس صاحبك الذى يقول :

يقر بعينى ما يقـــر بعينهـــا
وأحسن شىء ما به العين قـــرت

أفيحب صاحبك أن يكون أنثى ؟ قبح الله صاحبك وقبح شعره ·

ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقـــلى معى ما طلبتها

ولكن طلابيهـــا لما فات من عقلى

فما أرى بصاحبك من هوى ٠انما يطلب عقله ٠ قبح الله صاحبك وقبح وشعره ٠ ثم قالت لراوية نصيب ٠ أليس صـــاحبك الذى يقول :

أهيم بدعـــد ما حييت فان أمت

فوالحزنا من ذا يهيم بها بعدى

فما أرى له همة الا فيمن يتعشقها بعده ٠ قبح الله صـاحبك وقبح شعره ألا قال ٠

أهيم بدعـــد ما حييت فان أمت

فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

ثم قالت : لراوية الأحرص : أليس صاحبك الذى يقول :-

من عاشقين تراســـلا وتواعدا

ليـــلا اذا نجم الثـ ـريا حلقـــا

باتا بأنعـــم ليـــلة وألذهـــا

حتى اذا وضح الصـــباح تفرقا

قال : نعم • قالت : قبحه الله وقبح شعره الا قال : تعانقا (١) •

وفضلت جريرا على الفرزدق وصارحت الفرزدق برأيها فيه دون مجاملة • ذكر صاحب الأغانى أن الفرزدق خرج حاجا فلما قضى حجه عدل الى المدينة فدخل الى سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فقالت له : يافرزدق من أشعر الناس ؟ قال : أنا قالت : كذبت أشعر منك الذى يقول :

بنفسى مــن تجنبه عــزيز
على ومــن زيــارته لمــام

ومن أمسى وأصــبح لا أراه
ويطــرقنى اذا هجع النيــام

فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه • قالت : أقيموه فأخرج • ثم عاد اليها من الغد فدخل عليها فقالت : يافرزدق من أشعر الناس ؟ قال : أنا قالت : كذبت صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحيــاء لها جنى أستعبار
ولزرت قبــرك والحبيب يزار

كانت اذا هجــر الضجيع فراشها
كتم الحــديث وعفت الأسرار

---

(١) الاغانى ١٦ / ١٧٠ ، ١٧١ •

لا يلبث القـــرناء أن يتفـــرقوا
ليـــل يكـــر عليهـم ونهـــار

فقال : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه فأمرت به وأخرج ثم عاد اليها فى اليوم الثالث ، فقالت له : يافرزدق من أشعر الناس؟ قال : أنا . قالت : كذبت صاحبك أشعر منك حيث يقول :

ان العيون التى فى طرفها مرض
قتلننا ثم لم يحين قتـــلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له
وهن أضعف خلق الله أركانا (١)

واعترضت سكينة على ادعاء عروة بن أذينة (٢) العفة مع شعر قاله ذكر صاحب الأغانى أن سكينة وقفت على عروة بن أذينة فى موكبها ومعها جواريها فقالت : يا أبا عامر أنت الذى تزعم أن لك مروءة ، وأن غزلك من وراء عفة ، وأنك تقى ؟ قال : نعم . قالت: أفأنت القائل :

قالت وأبثثتها وجـــدى فبحت به
قد كنت عندى تحب الستر فاستتر

ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها
غطى هواك وما ألقى على بصرى

---

(١) الاغانى ٨ : ٣٨ ، ٣٩ الدار .
(٢) هو أبو عامر ت ١٣٠ هـ وكان من جلة علماء المدينة ومن شعرائها المتقدمين روى عنه الامام مالك وغيره .

قال لها : بلى . قالت : هن حرائز وان كان هذا خرج من قلب سليم (١) .

ومن ذلك أيضا هذه الرواية التى رواها صاحب الأغانى ولم ينسبها الى سكينة (٢) . قال مرت امرأة بابن أذينة وهو بفناء داره فقالت له : أأنت امرؤ صالح ، وأنت الذى تقول :

اذا وجـدت أوار الحب فى كبدى
عمدت نحـو سـقاء القوم ابترد

هبنى بردت بـبرد المـاء ظاهره
فمن لحر على الأحشاء يتقد (٣)

والأخبار كثيرة تشهد لها بسلامة الذوق ودقة اللمح والمعرفة بخصائص العربية وأساليبها كما تشهد لها بقوة حفظ الشـعر . وبطبيعة الحال لا تؤاخذ على جزئية أحكامها واتجاهها بالنقد الى اعتبار البيت أو الأبيات مناط الحكم على الشاعر فمقاييس النقـد مشتقة من البيئة ومن ثقافتها ومدى ما وصلت اليه من رقى . ولم يكن عصر السيدة ينظر الى القصيدة من حيث هى وحدة متكاملة فالنقد لم يزل فى طور النشأة والتكون ولم تكتمل أصوله بعد وان تعددت أنواعه من نقد للمعنى الى نقد للاسلوب الى نقد تفضيلى الى نقد يعنى باللغة والنحو أو العروض وموسيقى الشعر ... الخ من تلك الأنواع والألوان التى نمت فيما بعد .

---

(١) الاغانى ١٨ / ٣٢٨ الدار .
(٢) نسبها صاحب وفيات الاعيان الى سكينة ١ / ٢٩٨ .
(٣) الاغانى ١٨ / ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

كذلك نلاحظ أن أكثر أحكامها كانت على شـــعر الغزل ولم تتعرض للمديح قط وذلك على الرغم من أن الشعراء الذين وفدوا اليها كان أكثرهم من شعراء المديح .

وربما تكون أسقطت شعر المدح من حسابها لما تعلم من كثرة زيفه وجريه وراء الصالح الخاص كالجشع ورجاء النوال وما يغلب عليه من نفاق وهو بهذه الصورة ليس من العواطف السامية على عكس شعر الغزل الذى يمثل الوجدان الصادق . وهو المقياس الدقيق للتعرف على أصالة شعر الشاعر . وشعر الرثاء أيضا يتسم بصدق الأحاسيس والبعد عن الزيف . مر بنا استحسان السيدة سكينة لقصيدة جرير فى رثاء زوجته لاتسامها بصدق العاطفة ووصفها فضائل الزوجة . وروى صاحب الأغانى أن السيدة سكينة سمعت أبياتا من شعر عروة بن اذينة فى رثاء أخيـه فلم تشعر بصـــدق عاطفتها وربما أيضا أنها لم تتجاوب مع حزنه ونكده والابيات هى :

سرى همى وهــم المـــرء يسرى
وغـــار النجـم الا قيس ذــر

أراقب فى المجــرة كل نجـــم
تعرض فى المجــرة كيف يجـرى

لهــــم ما أزال مديمـــا
كأن القلب أضرم حـــر جمـــر

على بكر أخى ولـــى حميـــدا
وأى العيش يصـــفو بعد بكـــر

فقالت سكينة : ومن بكر هذا ؟ أليس هو الأسود الدحداح الذى

كان يمر بنا ؟ قالوا : نعم فقالت : لقد طاب كل شيء بعــنده حتى الخبز والزيت (١) ٠

ولا يمكن أن ننكر أهمية البيئة التى عاشت فيها وخصائصها ثم ما أولته للغزل من عناية خاصة كبيرة جعلت شعر الغزل هــو حياة هذه البيئة ٠

كانت هذه هى مكانة المرأة العربية الحرة فى الحياة الثقافية فى ذلك العصر ٠ ونستطيع أن نقول أن جل اهتمامها كان موجها الى الأدب والشعر والبيان وربما كان لقربها من عهد البداوة أثر فى العناية بآداب الجاهلية ولا سيما الشعر ٠

ولا أوافق من يدعى ان المرأة فى أيام الدولة الأموية زاحمت الرجال فى طلب جميع العلوم والمعارف وأصبحت لا تختلف عنهم فى شىء (٢) ٠

واذا كانت الروايات والاخبار التى تدلل على ثقـــافة المرأة الأدبية وولوعها بالشعر ونقده قد عنيت بالمشهورات فقط والمشهورات قليلات فأغلب الظن أنه وجد الى جانب هذه الشـــخصيات القليلة المشهورة شخصيات أخرى كثيرة مغمورة أسهمت فى نشاط الحركة الفكرية ٠ وقد ورد فى كتاب الأغانى كثير من الروايات عن نسوة فصيحات أديبات ناقدات دون تعريف باسماء أولئك النسوة ٠ من ذلك ما ورد فى أخبار نصيب أنه (أتى مكة فأتى المسجد الحرام

---

(١) الاغانى ١٨ / ٣٣٤ ٠

(٢) المرأة فى حضارة العرب : ١٣٣ ٠

ليلا فبينما هو كذلك اذ طلع ثلاث نسوة فجلسن قريبا منه وجعلن يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء واذا هن من افصح النساء وأدبهن ، فقالت احداهن : قاتل الله جميلا حيث يقول :

وبين الصـــــفا والمروتين ذكرتكم
بمختلف ما بين ساع موجف

وعند طـوافى قـــد ذكرتك ذكرة
هى الموت بل كادت على الموتتضعف(١)

فقالت الأخرى : بل قاتل الله كثير عزة حيث يقول :

طلعن علينا بين مروة والصـــفا
يمرن على البطحاء مور السحائب

فكدن لعمر الله يحـــــدثن فتنة
لمختشـــع من خشـــية الله تائب

فقالت الأخرى : قاتل الله نصيبا حيث يقول :

آلام على ليلى ولو أســـتطيعها
وحرمة ما بين البنية والستر

لملت على ليـــــلى بنفسى ميـــلة
ولو كان فى يوم التحالق والنحر

---

(١) تضعف : تزيد ٠

فقام نصيب اليهن فسلم عليهن فرددن السلام · فقال لهن : رأيتكن تتحادثن شيئا عندى منه علم فقلن : ومن أنت ؟ فقال : اسمعن أولا فقلن : هات فأنشدهن وعرفهن بنفسه وباستماعه الى قذف من قذفته فاعتذرت اليه القائلة · وقالت : والله ما أردت سوءا ، انما حملنى الاستحسان لقولك على ما سمعت) (١) هذا كان شـــأن الحرائر ·

وأما الجوارى فقد كان لهن دور كبير فى تطـــور وازدهار ثقافة أخرى وهى الغناء العربى فقد وضعن أصـــول علمه وقـــد اشتهرت مغنيات كثيرات فى بيئة الحجاز أشهرهن جميلة وهى أصل من أصول الغناء وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وســـلامة وعقيلة العقيقية وخليدة وربيحة (٢) · وقد فضلها الشعراء من أمثال عمر بن أبى ربيعة فقال لها أنت أول الغناء وآخره (٣) ·

وكان لها مجلس يحضره الشعراء والمغنين وكان الشعر الذى يتغنى فيه من عيون الشعر الجاهلى وهو شعر امرىء القيس وعلقمة وطرفة وغيرهم · وهذا يوضح مقدرة المغنيين والمغنيات اللغوية وقوة لسنهم وفصاحتهم هذا الى جانب الشعر الذى كان ينظم خصيصا من أجل أن يتغنى فيه ومما يوضح هذه الثقافة ما رواه صـــاحب الأغانى (وفد ابن سريج والغريض وسعيد بن مسجح ومسلم بن محرز المدينة فأجمع رأيهم على النزول على جميلة فنزلوا عليهـا فخرجوا يوما الى العقيق متنزهين فوردوا على معبد وابن عائشة

---

(١) الاغانى ١/٣٧٧ ·
(٢) الاغانى ٨/١٨٦ ·
(٣) الاغانى ٨/٢٠٧ ·

فجلسوا اليهما فتحدثوا ساعة ثم سال معبد ابن سريج وأصحابه أن يعرضوا عليهم بعض ما الفوا . فقال ابن عائشة : ان للقوم أعمالا كثيرة حسنة ولكن قد اجتمع علماء مكة وانا وأنت من المدينة فليعمل كل واحد منا صوتا ساعة ثم يغن به قال معبد ولنجعل بيننا حكما . قال ابن عائشة ان أصحابنا شركاء فى الحكومة قال ابن سريج على شريطة قال : على أن يكون ما نغنى به من الشعر مما حكمت فيه امرأة قال ابن عائشة ومعبد رضينا وهى أم جندب(١) فاجتمعوا فى الغد فى منزل جميلة وغنوا فى شعر امرىء القيس ولما انتهوا قالت جميلة . كلكم محسن وكلكم مجيـــد فى معناه ومذهبه . قال ابن عائشة : ليس هذا بمقنع دون التفضيل . فقالت: اما انت يا أبا يحى (ابن سريج) فتضحك الثكلى بحسن صوتك ومشاكلته للنفوس وأما انت يا أبا عباد (معبد) فنسيج وحـــدك بجودة تأليفك وحسن نظمك مع عذوبة غنائك ، وأما أنت يا أبا عثمان (سعيد بن مسجح) فلك أولية هذا الأمر وفضيلته ، وأما أنت يا أبا جعفر (ابن عائشة) فمع الخلفاء تصلح ، وأما أنت يا أبا الخطاب (ابن محرز) فلو قدمت أحدا على نفسى لقدمتك . وأما انت يامولى العبلات (الغريض) فلو ابتدات لقدمتك عليهم .

ثم سالوها أن تغنيهم لحنا كما غنوا فغنتهم بيتـــا لامرىء القيس وأربعة أبيات لعلقمة فكلهم أقروا لها وفضلوها (٢) والأبيات التى تغنت فيها هى (٣) :

---

(١) زوجة امرىء القيس وكان قد احتكم اليها امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة فى شعر لهما فى وصف الفرس وفضلت علقمة .

(١) الاغانى ٨ / ٨٨ ـ ١٩٤ .

(٢) الاغانى ٨ / ١٩٣ ـ ١٩٤ .

خليلى مرا بى على أم جنـدب
أقض لبانات الفؤاد المعذب (١)

ليالى لا تبلى نصـيحة بيننـا
ليالى حلوا بالسـتار فغرب (٢)

مبتلة كأن أنضـاء حليهـا
على شادن من صاحة متريب (٣)

محال كأجواز الجـراد ولؤلؤ
من القلقى والكبيس الملوب (٤)

اذا ألحم الواشـوان للشر بيننا
تبلغ رس الحب غيـر المكذب (٥)

---

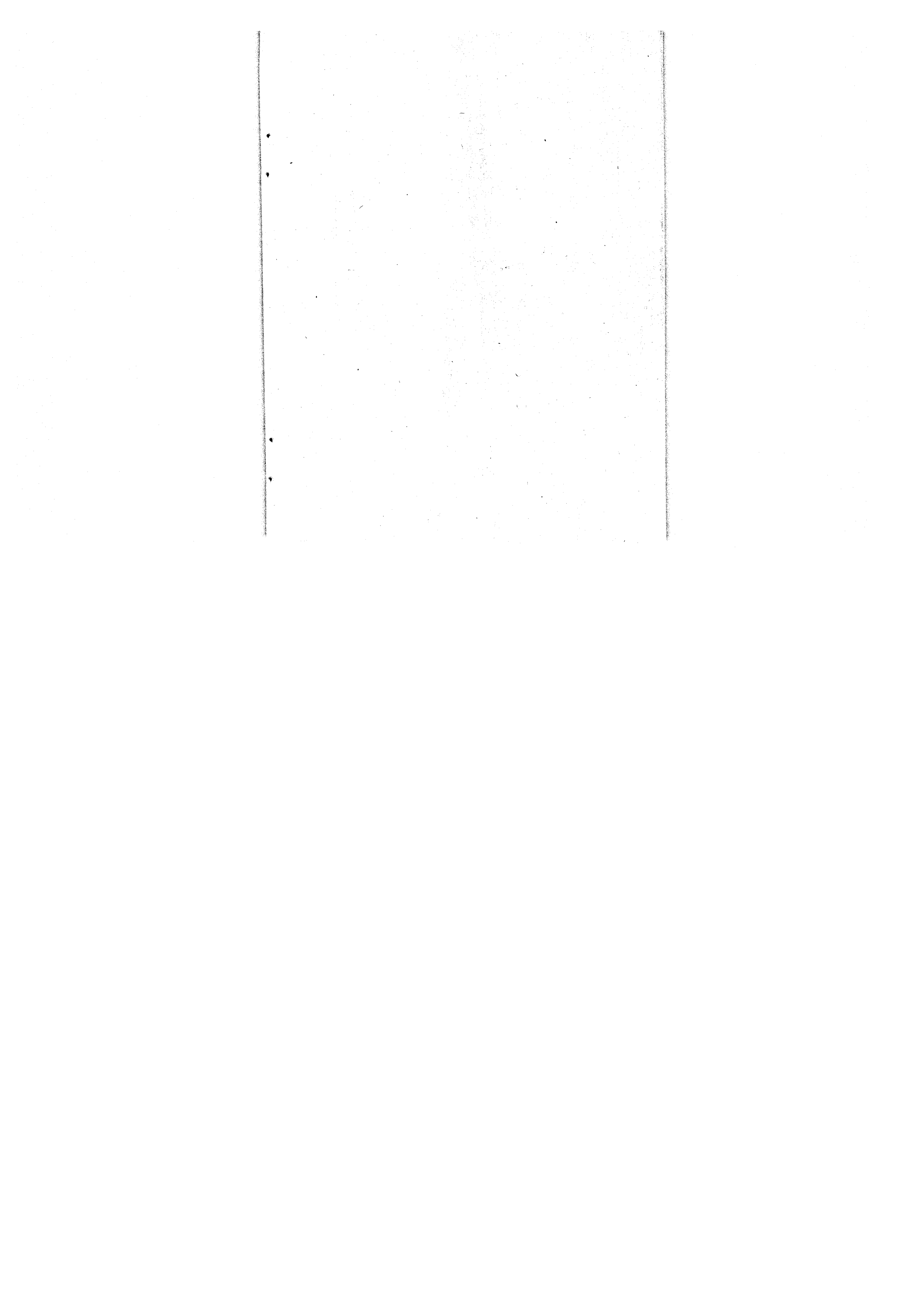
(١) فى الديوان لتقضى / والبيت مطلع قصيدته البائية وهى من أشهر قصائده ·

(٢) الستار : جبل بعالية الحجاز ، وغرب موضع تلقاءه ، وهذا البيت واقع فى ديوان علقمة بعد قوله ذهبت من الهجران فى غير مذهب · ولم يك حقا كل هذا التجنب وهو مطلع القصيدة ديوان علقمة الفحل للاعلم الشنتمرى)

(٣) مبتلة : أى مكتنزة اللحم ضامرة الكشح ، أنضاء الحلى : مادق منها ولطف كالقرط ـ صاحة : جبل أو هـو هضـبتان عظيمتان لهما زيادات وأطراف كثيرة (الاغانى ٨ / ١٩٤) ·

(٤) المحال : ضرب من الحلى يصاغ محززا ـ الجراد والجوز : وسط الشىء ـ القلقى : قلائد من اللؤلؤ الكبيس : حلى ـ الملوب المعطر بالملاب وهو نوع من العطر ·

(٥) الحم : أدخل ـ الرس : الثابت الراسخ ـ غير المكذب غير المتقطع



ثالثا : المرأة والحياة الاجتماعية فى عصر بنى امية :

الحياة الاجتماعية فى مجتمع ما تعد اهم الجوانب التى تعين على فهم المرأة ومعرفة المؤثرات التى اسهمت فى تشـكيل ملامحها ومجتمع هذا العصر يتسم باتساع رقعته المكانية فهو يشمل الحجاز والشام واليمن ومصر وبلاد المغرب والأندلس ۰ ونتيجة لهذا الاتساع اختلفت الطبائع والأذواق والعادات والتقاليد باختلاف طبيعة هـذه البيئات ومدى اتصالها بحضارات وثقافات الامم الأخـــرى ۰ كما تأثرت بالحالة الاقتصادية والدرجة التى تمتعت بها من الثراء او الحرمان ۰ واختلفت الأذواق حسب الأجناس والديانات فما يراه العرب حراما قد يحلله الموالى ، وما يتحاشاه أهل ملة معينة يبيحه أهل ملة أخرى فمجتمع هذا العصر مجتمع حافل متنوع من ناحية السعة فى المكان والتعدد فى البيئات والطبقات التى ادت الى المحافظة الشديدة ۰ والحرية الواسعة ۰ والتوسط بين هذا وذاك ۰

واذا كانت المرأة تشكل قسما كبيرا من هذا المجتمع فقد بدت بأكثر من صورة فهى اما عربية من الحـــرائر الشريفات المترفات المقيمات فى المدن ۰ واما أعرابية جافة من البادية ۰ كمـا أنها قد تكون أمة من الموالى ۰ وحقوقها فى هذا المجتمع أقـل من حقوق العربيات الشريفات وأخلاقها وطبائعها تختلف فى أغلب الأحيان عن أخلاقهن ۰

كانت المرأة العربية هى المفضلة فى العصر الأموى وتشـــدد العرب عند الزواج والمصاهرة فى عراقة النسب ومساواة الخاطب لهم ۰ وعد من النقائص كون الأم من الاماء حتى أن الشعراء هجوا خصومهم بهذا العيب يقول الفرزدق فى هجاء جرير :

ولو كنت حر العرض أو ذا حفيظة
جريت ولكن لم تلدك الحرائر (١)

وكان الأمويون يتعصبون على أبناء الاماء ولا يستخلفونهم على أن ذلك لم يمنع بعض الخلفاء من التزوج بهن ٠

وكان يزيد بن الوليد الخليفة الأموى أول من ولى هذا الأمر وأمة أمة هى أم سارية بنت فيروز بنت كسرى وهو الذى يقول :

أنا ابن كسرى وأبى مروان
وقيصر جدى وجدى خاقان (٢)

وكانت أم أخيه ابراهيم أم ولد أيضا وتدعى بريرة (٣) ٠

وكانت المرأة تستشار فى زواجها ولا تتزوج الا من ترضاه من ذلك ماروى عن السيدة سكينة بنت الحسين أنها لما دخلت الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير خطبها عبد الملك فقالت : والله لا يتزوجنى بعده قاتله أبدا (٤) ٠

وكان الحجاب هو السائد بالنسبة للحرائر خاصة البدويات منهن وأما أهل الحضر فكان البعض منهن سافرات لا سيما الشريفات

---

(١) ديوان الفرزدق ١ / ٣٤٨ ٠
(٢) مروج الذهب ٣ / ٢٣٩ ٠
(٣) ن٠م ٣/٢٣٩ ٠
(٤) الاغانى ١٩ / ١٢٨ ٠

من الطبقة الارستقراطية مثل عائشة بنت طلحة وقد عاتبها فى ذلك زوجها مصعب بن الزبير فقالت : ان الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لاستره (٥) ، وكذلك كانت عمرة الجمحية صاحبة أبى دهبل (٦) الشاعر المكى ، والثريا التى كان يتغزل بها عمر بن أبى ربيعة (٧) وغيرهن من نساء هذه الطبقة المترفة ٠

وكانت المرأة فى مدن الحجاز تختلف صورتها عنها فى غيره من البيئات البدوية فالحجاز اتصل بالحضارتين الفارسية والرومانية الاغريقية منذ الجاهلية ٠ وبعد الاسلام زاد الاحتكاك بأبناء الأمم الأجنبية الذين استرقوهم واحضروهم معهم الى مكة والمدينة فشارك هؤلاء فى نهضة هاتين المدينتين ٠ وكان أبناء المهاجرين والانصار يعيشون فى ثراء فأيديهم ممتلئة بما ورثوا من هذا الفىء الذى افاءه الله على آبائهم أيام الفتح ، ثم كانوا يحتفظون بمكانتهم فيمثلون الارستقراطية العربية ٠وكان الخلفاء يصانعونهم ويكرمونهم اكراما ماديا فيوسعون عليهم فى العطاء مراعاة لمكانتهم واصطناعا لهم ٠ وكانوا فى الوقت نفسه يمسكونهم بمعزل عن الحياة السياسية العملية ٠ واذا اجتمع اليأس من الحياة العملية الى الثروة والغنى فماذا عسى أن ينتجا ؟ اللهو والاسراف فيه والعكوف عليه (٤) ٠

وقد أدى هذا الى أن يعيش أهل مكة والمدينة حياة مترفة أشد

---

(٥) الاغانى ٨ / ١٧٦ ٠

(٦) الاغانى ٧ / ١١٦ ٠

(٧) ديوان عمر بن أبى ربيعة ٠

(٨) حديث الاربعاء ١ / ١٨٩ ط ١٣ ٠

الترف فبنوا القصور بالآجر والجص والساج وجعلوا فى أعلاها الشرفات ٠ وكانت قصور عثمان بن عفان وسـعد بن أبى وقاص وطلحة والمقداد وعبد الرحمن بن عوف تسترعى الأنظار (٩) ٠

وبنى معاوية بن أبى سفيان دورا يقال لها الرقط لاختـلاف ألوانها وأحضروا لها البنائين من الفرس ، وتبعه سراة مكة يشيدون قصورا باذخة فى عهده وبعد عهده (١٠) ٠ شـاع اذن الترف فى حياة أهل الحجاز فطعموا وشربوا فى أوانى الذهب والفضة ولبسوا الخز والديباج والإستبرق والحلل الموشاة وغالوا فى ذلك ٠

أما النساء فكن يلبسن الثياب المعصفرة الرقيقة الشفافة وكن يبالغن فى التحلى باللؤلؤ والياقوت والجواهر الكـريمة (١١) ، واشتهرت السيدة عائشـة بنت أبى وقاص بزينتها من قـلائد الذهب (١٢) ٠ كما اشتهرت السيدة سكينة بأنها كانت تثقل ابنتها بالحلى واللآلى (١٣) ٠

وكانت عائشة بنت طلحة عند عبد الله بن أبى بكر ثم توفى فتزوجها مصعب بن الزبير فأمهرها خمسمائة ألف وأهدى لها مثل ذلك (١٤) وقد حجت ومعها ستون بغلا عليها الهـوادج والرحائل فعرض لها عروة بن الزبير فقال :

---

(٩) مروج الذهب ٤ / ٢٠٤ ط باريس ٠
(١٠) الاغانى ٣ / ٢٨١ ٠
(١١) الاغانى ١ / ٣٩٥ ، ٢٢١ ، ٣١٠ ٠
(١٢) الطبقات البرى ٨ / ٧٧٣ ٠
(١٣) الاغانى ١١ / ١٨١ ٠
(١٤) الاغانى ١١ / ١٨٨ ٠

عائش يا ذات البغال الستين
أكل عام هكذا تحجين

فأرسلت اليه نعم يا عرية (١٥) ٠

ويروى صاحب الأغانى أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبد الملك فى الحج ٠ فقال لها : ارفعى حوائجك واستظهرى فان عائشة بنت طلحة تحج ففعلت ٠ فجاءت بهيئة جهدت فيها ، فلما كانت بين مكة والمدينة اذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة فسألت عنه فقالوا هذه ماشطتها ثم جاءت فى مواكب على هذه الهيئة لأعوانها ٠ ثم اقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج فقالت عاتكة ٠ ما عند الله خير وأبقى (١٦) ٠

ومن أخبار ترفها أن مصعبا دخل عليها يوما وهى نائمة ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار فأنبهها ونثر اللؤلؤ فى حجرها ؛ فقالت له : نومتى كانت أحب الى من هذا اللؤلؤ (١٧) ٠

وكانت السيدة سكينة من شهيرات نساء العصر المترفات وقد تزوجها مصعب بن الزبير على ألف ألف (١٨) ٠ وكانت تلتقى بالشعراء من وراء ستار فتراهم ولا يرونها وتفاضل بينهم وتمنح

---

(١٥) الاغانى ١١ / ١٨٨ ٠
(١٦) الاغانى ١١ / ١٨٨ ، ١٨٩ ٠
(١٧) الاغانى ١٦ / ١٥٠ ٠
(١٨) الاغانى ١٦ / ١٥٥ ٠

جوائزها للمجيد . وكانت تصفف جمتها تصفيفا لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك وكانت تلك الجمة السكينية وكان عمر بن عبد العزيز فى ولايته على المدينة اذارأى رجلا يصفف جمته السكينية جلده وحلقه (١٩) .

ومن ترفها أنها حجت ورمت الحجار فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها (٢٠) .

وعرف فى هذا العصر المضحكين واتخذهم السادة لادخال السرور على النفوس ودفع الملل . وكان أشعب مضحك أهل المدينة يتردد على السيدة سكينة لاضحاكها (٢١) .

ومع الترف شاع الغناء واشتهر الموالى من الرجال والنساء بالغناء . واشتهرت من النساء المغنيات عزة الميلاء وكان لها دار يقصدها أهل المدينة لسماع الغناء . وكان يقال لها سيدة من غنى من النساء ويصفها صاحب الأغانى فيقول بالاضافة الى جودة غنائها (مع جمال بارع وخلق فاضل واسلام لا يشوبه دنس تأمر بالخير وهى من أهله وتنهى عن السوء وهى مجانبة له) (٢٢) .

وأرى أن صاحب الأغانى يبالغ فى وصف خلق المغنيات وحسن اسلامهن وبعدهن عن كل ما يشين . وهذه المبالغات لا يمكن أن

---

(١٩) الاغانى ١٦ / ١٤٤ .
(٢٠) الاغانى ١٦ / ١٥٩ .
(٢١) الاغانى ١٦ / ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٢٢) الاغانى ١٧ / ١٦٣ .

تصدق لمن كانت صناعتها هذه الصناعة التى لا تخلو من دلال ولهو واثارة لمشاعر المستمعين هذا بالاضافة الى ان كل المغنيات كن من الموالى الاماء وهؤلاء لهن أخلاق تختلف عن أخلاق العرب التى تميل الى شدة المحافظة • واذا أردنا أن نعرف من هن القيـــان المغنيات فلنطلع على رسالة القيان للجاحظ • وهنا لابد أن ننكر مبالغات أبى الفرج الأصفهانى فى مدحه لأخلاق المغنيات •

ولنعد الى عزة الميلاء فنرى الشعراء يغشون منزلها فتغنيهم ومن ذلك ما يروى من أن عبد الله بن جعفر وابن أبى عتيق وعمر بن أبى ربيعة كانوا يغشون منزلها فتغنيهم وأنها غنت يوما عمر لحنا لها فى شىء من شعره فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صعق منها ، فلما أفاق قال له القوم لغيرك الجهل يا أبا الخطاب • قال : انى سمعت والله ما لم أملك معه نفسى ولا عقلى (٢٣) •

ويلى عزة جميلة وكان لها مكانة عظيمة فى الغنـــاء ومنهن الفرهة وحبابة وسلامة وفرعة وبلبلة ولذة العيش والزرقاء وكلهن معروفات بالفن والأدب • وكان يقدر حظ الجارية على قـــدر علو كعبها فى هذه الفنون •

ولم يفرق حب الغناء فى هذا العصر بين ناسك ولاه فقد أحب عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى الملقب بالقس لعبادته ســـلامة المغنية حتى سميت سلامة القس وكان سبب افتتانه بها أنه ســـمع غناءها على غير تعمد فبلغ غناؤها منه كل مبلغ فرآه مولاه فقال له • هل لك أن أخرجها اليك فتسمعها فمازال به حتى وافق فاقعدها بين يديه فغنت فشغف بها وشغفت به (٢٤) ومن شعره فيها :

---

(٢٣) الاغانى ١٧ / ١٦٤ •
(٢٤) الاغانى ٨ / ٣٣٥ •

ان التى طـرقتك بين ركـــائب
تمشى بمزهـــرها وانت حـــرام

لتصـــيد قلبك أو جـــزاء مودة
ان الرفيـــق له عليك ذمام

باتت تعللنـــا وتحســـب أننـا
فى ذاك أيقـــاظ ونحـــن نيـــام

حتى اذا ســـطع الضياء لناظر
ـــاذا وذلك بينـــا أحـــلام

قد كنت أعـذل فى السفاهة أهلها
فاعجب لـــــا تأتى به الأيـــام

فاليوم أعـــذرهم وأعلم أنمـــا
سبل الضلالة والهدى أقسام(٢٥)

ومن قوله فيها معجبا بحسن غنائها وجمال صوتها :

ألم ترها لا يبعـــد الله دارها
اذا رجعت فى صوتها كيف تصنع

تمـــد نظام القـــول ثم ترده
الى صلصل فى صوتها يترجع (٢٦)

---

(٢٥) الاغانى ٨ / ١٣٦ .
(٢٦) الاغانى ٨ / ٢٣٦ .

واشترى الخليفة يزيد بن عبد الملك سلامة بعشرين الف دينار واشترى حبابه بأربعة آلاف دينار (٢٧) ٠ وكان الخليفــة يزيد بن عبد الملك يعشق حبابة وقد جزع على وفاتها ومات بعـــدها بفترة قصيرة وقال فى رثائها :

فان تسل عنك النفس أو تدع الهوى
فباليأس تسلو النفس لا بالتجلد (٢٨)

وكان الخلفاء الأمويون منذ الوليد بن عبد الملك يغدقون على المغنين جوائز ثمينة ربما فاقت جوائزهم للشعراء ٠

واشتهر بعض الخلفاء بأصوات فى الغناء مثل عمر بن عبد العزيز فقد عرف بسعادياته وهو وال على المدينة وهى سبعة الحان تذكر كلها سعاد منها :

الما صـــاحبى فزر ســـعادا
لقرب مزارها ودعـــا البعـــادا

عـــاود القـــلب ســـعادا
فقلا الطـــرف الســـهادا(٢٩)

وولعت حرائر النساء بالغناء فاستمعن اليه ومنحن جوائزهن

---

(٢٧) الاغانى ٨ / ٣٢٤ _ الاغانى ١٥ / ١٢٤ ٠
(٢٨) مروج الذهب ٣ / ٢٠٩ ٠
(٢٩) مروج الذهب ـه ٣

للمحسن من المغنين . ويذكر صاحب الاغانى الكثير من الاخبار التى تدل على شغف النساء باستماع الغناء فى شعر الغزل ومن ذلك استماع السيدة سكينة للغناء واحتكام الغريض وابن سريج اليهـا وحكمها بتساويهما فى الجودة (٣٠) واما الشعر الذى تغنيا به فهو للعرجى شاعر الغزل وأوله .

عوجى علينـــا ربة الهـــودج
انـــك الا تفعـــلى تحـــرجى

ومن ذلك انه اجتمع نسوة فذكرن عمر بن ابى ربيعة وشعره وظرفه وحسن مجلسه وحديثه وتشوقن اليه . فقالت سكينة : أنا لكن به فبعثت اليه رسولا ووعدته الصـــورين (٣١) لليلة سمتها فوافاها على رواحله ومعه الغريض فحدثهن حتى وافى الفجر وحان انصرافهن ، فقال لهن : انى والله لمشتاق الى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم والصلاة فى مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا ثم انصرف الى مكة وقال :

ألم بزينب ان البين قـــد أفـــدا
قل الثواء لئن كان الرحيـل غدا

وانصرف عمر والغريض معه ، فلما كانا بمـــكة قال عمر : يا غريض انى أريد أن أخبرك بشىء يتعجل لك نفعه ويبقى لك ذكره فهل لك فيه ؟ قال : افعل من ذلك ما شئت ويبقى لك وما أنت من

---

(٣٠) الاغانى ٢ / ٣٦٥ الغريض وابن سريج من أشهر مغنى العصر الاموى .

(٣١) الصوران : موضع بالمدينة بالبقيع :

أهله . قال : انى قد قلت فى هذه الليلة التى كنا فيها شعرا فامض به الى النسوة فأنشدهن ذلك وأخبرهن أنى وجهت بك فيه قاصدا . قال : نعم فحمل الغريض الشعر ورجع الى المدينة فقصد سكينة وقال لها : جعلت فداك يا سيدتى ومولاتى ، ان أبا الخطاب ـ أبقاه الله ـ وجهنى اليك قاصدا . قالت : أوليس فى خير وسرور تركته ؟ قال : نعم قالت : وفيم وجهك أبو الخطاب حفظه الله ؟ قال جعلت فداك ان ابن أبى ربيعة حملنى شعرا وامرنى أن انشدك اياه قالت : هاته فأنشدها الشعر كله ، قالت: فيا ويحه فما كان عليه أن يرحل الا فى غده فوجهت الى النسوة فجمعتهن وأنشدتهن الشعر ، وقالت للغريض : هل عملت فيه شيئا ؟ قال : قد غنيته ابن ابى ربيعة ، فقالت سكينة : فهاته فغناه الغريض . فقالت : احسنت والله وأحسن ابن أبى ربيعة لولا أنك سبقت فغنيته عمر قبلنا لأحسنا جائزتك . يا بنانه أعطيه بكل بيت ألف درهم فأخرجت اليه بنانه أربعة الاف درهم فدفعتها اليه . وقالت سكينة لوزادنا عمر زدناك (٣٢) .

والخبر يدل على تمتع المراة من الطبقة الارستقراطية بقسط وافر من الحرية ثم على ولوعها بسماع الغناء فى شعر الغزل وحرصها على أن يخلد الشعراء ذكرها فى أشعارهم . والخبر لا يصدق على أبنة رسول الله وانما هو يمثل ذوق المراة من هذه الطبقة المترفة .

وكان السادة يسترضون نساءهم بالغناء مثل ما فعل مصعب ابن الزبير مع عائشة بنت طلحة (٣٣) .

---

(٣٢) الاغانى ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
(٣٣) الاغانى ٢ / ٢٨٠ .

ومع الولوع بالغناء والمغنيات شاع شعر الغزل وتطور ونظم الشعراء غزلهم مقطوعات فى أوزان قصيرة تصلح للغناء وتحكى خواطر الشاعر وتجاربه وجمال محبوبته وترفها ٠

وعلى الرغم من ان المرأة العربية كانت هى المفضلة فى ذلك العصر فقد عشق بعض الشعراء الجـــوارى المغنيات ٠ والاحوص الشاعر هو أشهر من تغزل بهن ٠ويروى أنه أحب جميلة المغنية وأنه كان معجبا بها لا يكاد يفارق مجلسها ومن شعره فيها :

وبالقفر دار من جميـــــلة هيجت
سـوالف حب فى فؤادك منصب

ترى العـين ما تهوى وفيها زيادة
من الحسن اذ تبدو وملهى للعب(٣٤)

ولم يتعلق الأحوص بصاحبة الدار وحدها بل تعلق بكثيرات من المغنيات عندها منهن الذلفاء وعقيلة وسلامة يقول فى الذلفاء :

انمـــا الذلفـــاء همى ... فليدعـــنى من يلـــوم
أحســن الناس جميعـا ... حين تمشـــى وتقـوم
حبب الدلفــاء عنـدى ... منطق منهـــا رخــيم
أصـــل الحبـــل لترضى ... وهى للحبـــل صروم
حبهـــا فى القلب داء ... مســـتكن لا يريـم (٣٥)

---

(٣٤) الاغانى ٨ / ٢٣١ ٠
(٣٥) الاغانى ٤ / ٢٥٩ ٠

فالأحوص كان على غير ذوق عصره فاشتهر بالتغزل بالاماء والجوارى من مغنيات المدينة ٠٠ وقد وجد فيهن مالا يجـــده فى النساء الحرائر المتحفظات ٠ وكان غزله فيهن عفيفا وصريحا ٠

ويعلق الدكتور شوقى ضيف على ظاهرة اهتمام الشـــعراء بالجوارى بقوله (ان الغزل بالاماء ليس ظاهرة عباسية مستحدثة فى الشعر العباسى وانما هى ظاهرة أقدم من ذلك فهى ظاهرة أموية أو ظاهرة حجازية قبل أن تكون ظاهرة عراقية (٣٦) وهذه حقيقة فأغلب الظن أن بدء هذه الظاهرة كان فى العهد الأموى ثم أنها نمت واتضحت فى العصر العباسى ٠

كانت هذه هى صورة المرأة العربية والأمة فى مدن الحجاز وصورة المرأة المترفه فى مدن الشام والعراق لا تختلف عن هذه الصورة من حيث الحرية الواسعة والترف ورفاهية العيش ٠

والى جانب هذه الصورة كان هناك صورة أخرى للمرأة فى البادية حيث اختلف أسلوب الحياة والمستوى الاقتصادى والطبائع والأخلاق والعادات والتقاليد ٠ والمعروف أن طبيعة البادية تختلف عن طبية الحضر منذ الجاهلية والى الآن فهى أشد تمسكا بالعفة والشرف والبعد عن كل ما يخدش الحياء ويتعرض لجرح الأعراض ٠ وكان لاختلاف البيئة والطبع أثر فى اختلاف الأخلاق والذوق مما أدى الى اختلاف صورة المرأة البدوية عن الحضرية ٠ كما أدى اختـــلاف المستوى الاقتصادى وقلة المال الى عدم العناية المبالغ فيها بالحلى وألوان الزينة فاعتمدت البدوية على الجمال المطبوع دون الجمال

---

(٣٦) الشعر والغناء فى مكة والمدينة : ١٣٢ ٠

المصنوع واتخذت زينتها من الأشياء البسيطة الموجودة فى الطبيعة ومما يوضح ذلك ما رواه صاحب الأغانى من ان رجلا أنشد مصعب ابن الزبير قول جميل :

ما أنسى لا أنسى منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلتها أم منظـــــور

فقال : لوددت أنى عرفت كيف جلتها . فقيل له : ان أم منظور هذه حية فكتب فى حملها اليه مكرمة فحملت اليه فقال لها : فخبرينى عن قول جميل كيف كانت هذه الجلوة ؟ قالت : ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة . وضفرت شعرها وجعلت فى فرقها شيئا من الخلوق ومر بنا جميل راكبا ناقته فجعل ينظر اليها بمؤخر عينه ويلتفت اليها حتى غاب عنا وقد أضفى الاسلام على هذه البيئة تقوى وصلاحا فانصرف أهلها عن المعاصى واتجهوا الى لون من الحب العفيف الذى تحفظ فيه كرامة المرأة وعرضها . وهذا اللون يهيم فيه العاشق بمحبوبة واحدة يرى فيها مثله الأعلى الذى يحقق له متعة الروح ورضا النفس واستقرار العاطفة . وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله وتتحقق فيها أمانيه فهى الهدف الذى يطلبه والغاية التى يسعى اليها والأمل الذى يرجوه . ونشأت فى هذه البيئة قصص حب كثيرة عاش أبطالها لمحبوبة واحدة وماتوا من شدة ما عانوه من آلام هذا الحب . وأهم القبائل التى عرفت بهذا اللون بنو عذرة ويليها بنو عامر . وبنو عذرة بطن من قضاعة التى يصل نسبها الى حمير اليمنية أو معد العدنانية على اختلاف النسابين فى ذلك . وكان بنو عذرة ينزلون فى البادية العربيـــة

---

(٣٧) الاغانى ٨ / ١١٣ .

شمال الحجاز فى منطقة وادى القرى وتبوك الى ايلة على البحر الأحمر وهى منطقة على حظ غير قليل من الخصب والاستقرار يسرته لها بيئتها الطبيعية من ناحية ووقوعها على الطريق التجــارى الى

الشام ومصر من ناحية أخرى . ومنذ الجاهلية اشتهرت هـــذه القبيلة بالقوة والمنعة والشرف (٣٨) وأما بنو عامر بن صعصعة فهم من نزار . وقد اشتهروا بالحب المفضى الى الجنون أحيانا ومنهم قيس بن الملوح مجنون ليلى . كذلك وجد هذا اللون من الحب فى البادية العربية كلها . أما سبب نسبته الى عذرة دون غيرها من القبائل فقد ذكر القدماء أقوالا تدل على أن السبب يرجع الى جمال نساء هذه القبيلة وعفتهن . قال عروة بن الزبير لعذرى : انكم أرق الناس قلوبا يريد أصباهم الى الحب . فقال : نعم لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل ما بهم من داء الا الحب (٣٩) .

وقال فزارى يوما لعذرى : أتعدون موتاكم فى الحب مزية وهو من ضعف اليقين ووهن العقيدة وضـــيق الروية فقال : أما والله لو رأيتم المحاجر البلج ترشق بالعيون الدعج من تحت الحواجب الزج والشفاة السمر تبسم عن الثنـــايا الغر كأنها شـــذر الدر لجعلتموها اللات والعزى وتركتم الاسلام وراء ظهوركم (٤٠) .

وقيل لأعرابى من بنى عذرة (ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث كما ينماث الملح فى الماء ؟ أما تتجلدون ؟ فقال : اننا ننظر

---

(٣٨) الحب المثالى عند العرب : ١١ .

(٣٩) تزيين الاسواق : ٩ ، مصارع العشاق ٢٠ بتفصيل أحوال العشاق.

(٤٠) ن.م .

الى محاجر أعين لا تنظرون اليها) (٤١) _ وسأل سعيد بن عقبة الهمدانى أعرابى ممن الفتى قال : من قوم اذا عشقوا ماتوا ٠ قال : عذرى ورب الكعبة فمم ذاك ؟ قال الأعرابى فى نسائنا صباحة وفى فتياتنا عفة وذكر ابراهيم بن سعد الزهرى أنه جاءه رجل من بنى عذرة لحاجة فجرى ذكر العشق والعشاق ، فقال ابراهيم : أأنتم أرق قلوبا أم بنو عامر قال : انا لأرق الناس قلوبا ولكن غلبتنا بنو عامر بمجنونها (٤٢) ٠

ويرى د٠ يوسف خليف أن السبب فى هذا يرجع الى أنها هى التى مثلت هذه الظاهرة الاجتماعية أقوى تمثيل لكثرة من عرف من عشاقها الذين رأى فيهم الرواة المثـــل الكاملة لهـــذا الحب والنماذج الدقيقة له والأمثـــلة المعـــبرة عنه أدق تعبير وأروعه وخاصة عند جميل بثينة الذى يعد بحق أروع مثل له وأدق نموذج عرفته البادية منه ٠ وأقوى الألسنة تعبيرا عنه وأشهر من لمع اسمه فى تاريخه ٠ وربما يرجع السبب أيضا الى أن أقدم من عرفه الرواة من أصحاب هذا الحب فى العصر الأموى وهو عروة بن حزام كان عذريا) (٤٣) ٠

واذا كان بعض المؤرخين يشك فى وجود بعض شخصيات الغزل العفيف كشخصية قيس بن الملوح (٤٤) ٠ أو يشـــك فى تفاصيل حياتهم أو الطريقة التى عرفو بها محبوباتهم ٠ والحقيقة أنه نشبت الكثير من الأساطير حول هذه التفاصيل ٠ كما حاول

---

(٤١) وفيات الاعيان ١ / ٢٠٣ ، عيون الاخبار ٤ / ١٣١ ٠
(٤٢) مصارع العشاق ٣١٥ ٠
(٤٣) الحب المثالى : ١٦ ٠
(٤٤) حديث الاربعاء ١ / ١٧٦ ٠

البعض وضع العراقيل فى سبيل تتويج هذا الحب بالزواج فادعى أن الشاعر اذا شبب بمحبوبته وذكرها فى شعره حرم من الزواج منها وزوجت لشخص آخروهذا الأمر موجود الى الآن فى بعض البلاد العربية مثل فلسطين ٠ ونتيجة لشيوع هذه الظاهرة الاجتماعية فى البادية نشأ لون من الأدب الشعبى دار حول قصص هؤلاء المحبين وأخبارهم وصور تمسك البادية بالفضائل ومكارم الأخلاق وما تتسم به المرأة البدوية من عفة ٠ وسواء أكانت كل شخصيات المحبين العذريين حقيقة ، أم كان بعض هذه الشخصيات خياليا ، أم بالغ القصاصون فى بعض هذه القصص وأتى بتفاصيل غير حقيقية فالمهم أن ظاهرة غيرة الرجال وعفة البدوية ووجود هذا اللون العفيف من الحب كان موجودا فى البادية وبدت من خلاله صورة المرأة البدوية وطبائعها وأخلاقها فى العصر الأموى ٠

رأينا مما سبق أن المرأة فى العصر الأموى تعددت صورها ، فالعربية الحضرية من الحرائر لها صورة مميزة خاصة اذا كانت من علية القوم أهل الحسب والثراء والترف وصورتها زاهية بالألوان والأصباغ والحلى وصنوف الجوهر وهى متمتعة بقسط وافر من الحرية في الحياة والنزهة والتنقل من مكان الى مكان ومقابلة الشعراء والاستماع الى المغنين ٠

وهناك صورة أخرى للمرأة البدوية وهى صورة فطرية تتميز بالبساطة والسذاجة وتزينها العفة والحياء وهى تختلف فى أخلاقها عن الحضرية السافرة فى أغلب الأحيان كما انها مستترة ترتدى الحجاب ٠

وصورة ثالثة للجوارى والاماء وخاصة المغنيات منهن ٠ وكان الرقيق قد كثر فى هذا العصر نتيجة للفتوحات وتعددت أجناسه

واختلفت صور النساء باختلاف البيئات اللائى أتين منها ٠ وكن سافرات لاهيات متبرجات فى أغلب الأحيان ٠ والى جانب هـذه الصور وجدت صورة المرأة العربية من الطبقة الوسطى والدنيا ومنزلتها كزوجة وأم وربة بيت تسهم فى راحة زوجهـا وتوفير السعادة لأسرتها وتفكر فى مسئوليات العيش وضرورياته يقـول أعشى همدان مصورا حوارا طريفا بينه وبين زوجة عن المال :

قالت تعاتبنى عـرسى وتسـألنى
أين الدراهم عنـا والدنانير

فقلت أنفقتها والله يخلفهـا
والدهر ذو مرة عسر وميسور

ان يرزق الله أعدائى فقد رزقت
من قبلهم فى مراعيها الخنازير

قالت فرزقك رزق غـير متسع
وما لديك من الخـير قطمير

وقد رضيت بأن تحيـا على رمق
يوما فيوما كما تحيا العصافير (٤٥)

ويتحدث جرير الى زوجة أم حزرة شريكة حياته وأم أبنائه ويصورها مشاركتها له فى همه تحاول حل مشاكلهما الاقتصادية يقول جرير :

---

(٤٥) الحيوان ٧ / ٦٢ ٠

تعـــزت أم حـــزرة ثم قـــالت
رأيت الموردين ذوى لقـــــاح

تعـــلل وهى ســـاغبة بنيها
بأنفـــاس من الشـــم القراح

سأمتاح البحـــــور فجنبينى
أذاة اللوم وانتظرى امتياحى

ثقى بالله ليس لـــــه شريك
ومن عند الخليفة بالنجاح(٤٦)

وقد صور جرير مكانة الزوجة فى الأسرة بالنســـــبة الى زوجها وابنائها وأثر فقدانها فقال :

ولهت قلبى اذ علتنى كـــبرة
وذوو التمائم من بنيك صغار (٤٧)

فموت زوجة أحزنه حزنا شديدا حتى ذهب بعقـــله لتفكيره بأسرته وبنيه الصغار ما زالوا بحاجة الى حنان الأم ورعايتها ٠

وقد امتدح جرير صفات زوجه فعكس لنا الصورة المستحبة فى أخلاق الزوجة من حب وعطف ورعاية لزوجهـــــا وأولادها

---

(٤٦) الديوان : ٩٧ ٠
(٤٧) الوله : ذهاب العقل واختلاطه ٠

ومعاشرة طيبة لجيرانها وعفة وحياء وعـدم تبرج وحفظ لأسرار بيتها وزوجها يقول :

نعم القرين وكنت علق مضنية
وأرى بنعف بلية الأحجـــار

عمرت مكرمة المسـاك وفـارقت
ما مسـها صلف ولا إقتـار

كانت مكرمة العشير ولم يكن
يخشى غوائل أم حـزرة جار

والريح طيبة اذا اسـتقبلتها
والعرض لا دنس ولا خـواو

واذا سريت رأيت نارك نورت
وجهـا أغر يزينه الأسفار

كانت اذا هجر الحليل فراشها
خزن الحديث وعفت الأسرار(٤٨)

ويقـول :
يا أم حزرة ان العهد زينه
ود كريم وسر غير منشـور (٤٩)

---

(٤٨) الديوان : ١٩٩ ـ ٢٠١ والنعف من الارض : المكان المرتفع فى اعتراض وبلية اسم بلد ٠

(٤٩) الديوان : ٢٥٣ ٠

وبناء على ما سبق وما ذكرنا من صور المرأة فلا نستطيع أن نحكم حكما واحدا يشمل كل نساء العصر الأموى . وقد حاول بعض المؤرخين أن يحكم هذا الحكم فضل الطـــريق لأنه رأى أن أخلاق المرأة العربية تبدلت وأنها جنحت الى الانحراف والاباحية ، وأن أولياء الأمر قد تساهلوا فى شأنها ونسوا غيرتهم القـديمة عليها ، وأن هذا التساهل شجع المنحرفين على مالا تحمد عقباه .

يقول جورجى زيدان (بدأت المرأة بتبديل طباعها فى أيام الأمويين لأن العفة والغيرة أصابهما فى ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجوارى والغلمان وانغماس بعض الخلفـــاء فى الترف والقصف وانتشار الغناء ، فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المخنثون فى المدن وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل فأخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجـال وقلت عفة الناس) (٥٠) .

ويستدل على صدق ظنه بتساهل بعض الخلفاء فى شـــأن بناتهم فى سبيل كسب شاعر يمدحهم ويهجو أعداءهم من الأحزاب الأخرى وكان الخلفاء لا يمنعونهم من التشبيب الا اذا مس عرضـهم وأما الدهاة منهم فكانوا يتلطفون فى دفعهم ويروى أمثـــلة من كتاب الأغانى تؤيد رأيه منها (أن عبد الرحمن بن ثابت شبب بابنة معاوية وهو خليفة وبلغ ذلك ابنة يزيد فغضب ودخل على أبيـه وقال : يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن ثابت قال معاوية : ولم ؟ قال ، شبب بأختى . قال : وما قال ؟ فقال . قال :

طال ليلى وبت كالمحـــزون
وملت الثـــواء فى جـيرون

---

(٥٠) تاريخ التمدن الاسلامى ٥ / ٧٢ .

قال معاوية : يا بنى وما علينا من طول ليله وحزنه أبعده الله . قال : ثم قال :

فلذاك اغتربت بالشـام حتى
ظن أهلى مرجمات الظنـون

قال : يا بنى وما علينا من أهله . قال : انه يقول :

هى زهرة مثل لؤلؤة الغـوا
ص ميـزت من جوهر مكنون

قال : صدق يا بنى . قال : انه يقول :

واذا ما نسـبتها لم تجدها
فى سناء من المكارم دون

قال : صدق يا بنى هى هكذا . قال : انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ
ـراء تمشى فى مرمر مسنون

ومازال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يوافقه ويظهر انه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه . ثم كلمه بعض خاصته بشأنه واكبروا جارته . وقالوا : لو جعلته نكالا . قال : لا ولكن أداويه بغير ذلك . واتفق أن عبد الرحمن وفد على معاوية واستقبله أحسن استقبال وأحله على سريره وأقبل عليه بوجهه ثم قال : ان ابنتى الأخرى عاتبة عليك قال : فى أى شىء ؟ قال :

فى مدحك أختها وتركك اياها قال : فلها العتبى انى ذاكرها وممدها .
فلما فعل . وبلغ ذلك الناس قالوا : قد كنا نرى أن تشبيب ابن
حسان بابنة مُعاوية لشىء فاذا هو على رأى معاوية وامره وعلم
من كان يعرف أنه ليس له بنت اخرى ، وانما هى خدعة ليشبب بها
فيعلم الناس أنه كذب على الأولى (٥١) .

ويستدل جورجى زيدان بهذه القصـــــة على قلة الغيرة فى
العصر الأمـــوى وهــــذه تدل على حـــلم معـــاوية وحسن تصرفه
فى هذه المسألة الخاصة بعرضه والحقيقـة أن معـــاوية لم يكن
يتسامح فى التشبيب ولم يكن أغلب حكام بنى أمية يتسامحون فى
ذلك فهم عرب أقحاح وهم ما زالوا قريبى العهـد من البداوة يخدس
عرضهم من يتعرض لنسائهم . وقد اشتكى الى معـــاوية بن أبى
سفيان كل من أهل لبنى صاحبة قيس بن ذريح ، وليلى صاحبة قيس
ابن الملوح تشبيب هذين العاشقين فى ابنتيهما فأهدر دمهما . وكذلك
فعل عبد الملك بن مروان فى أهدار دم جميل بثينه . ونفى عامل
المدينة الأحوص عن مدينة رسول الله لأنه شبب ببعض نسائها .

ولما بلغ الوليد بن عبد الملك أن وضاح اليمن شــــبب بامرأة
الوليد أعدمه . كما أن عمر بن عبد العزيز منع عمر بن أبى ربيعة
من التشبيب منعا باتا .

وقد كانت بعض نساء الطبقة المترفة يسعين الى الشـــعراء
ليخلدن فى الشعر أو يلفتن اليهن الانظار على اقل تقدير .

ومن ذلك ما يروى من أنه كان لعبد الملك بن مروان بنت أرادت
الحج فخاف أن يشبب بها عمر بن أبى ربيعة فاستكتب الحجاج اليه

---

(٥١) الاغانى ١٣ / ساسى ١٤٦ .

ان هو فعل أن يصيبه بكل مكروه ٠ فلما قضت حجتها مر بها رجل ، فقالت له من أنت؟ قال: من أهل مكة ٠ قالت: عليك وعلى أهلك لعنة الله ، فقال : ولم ذاك ؟ قالت : حججـــت فدخلت ومعى من الجوارى ما لم تر العين مثلهن فلم يستطع الفاسق عمر بن أبى ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتا نلهو بها فى الطريق من سفرنا ٠ قال : انى لأراه قد فعل قالت : فأتنا بشىء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير فمضى فأخبره فقال : لقد قلت ولكن أحب أن تكتم على وأنشده قصيدة قالها فيها (٥٢) ٠

وهذه الرواية تدل على حب النساء للشعر وولعهن به لقطع أوقات الفراغ واللهو ويستحسن فى هذا الشعر أن يكون مما مدحت به المرأة لتزهو به على رفيقاتها ٠

وهناك روايات أخرى ذكرها صاحب الاغانى فى أخبار عمر ابن أبى ربيعة مدلولها خشية النساء من التشهير بهن فى الشعر فاستحلفن عمر ألا يتعرض لهن فى شعره وكن بدعـوته الفاضح للحرائر (٥٣) ٠

ومن ذلك أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فلما قضت نسكها أتت عمر بن أبى ربيعة وقد أخفت نفسها فى نسوة فحدثها مليا ٠ فلما انصرفت أتبعها عمر رسولا عرف موضعها وسأل عنها حتى أثبتها فعادت اليه بعد ذلك ، فأخبرها بمعرفته اياها فقالت : نشدتك الله أن تشهرنى بشعرك (أى لا تشهرنى فى شعرك) وبعثت اليه بألف دينار فقبلها وابتاع بها حللا وطيبا فأهداه اليها فردته

---

(٥٢) الاغانى ٤ / ١٤٨ ٠

(٥٣) الاغانى ١ / ١٩٠ ٠

فقال لها : والله لئن لم تقبليه لانهبنه فيكون مشهورا فقبلته ورحلت فأنشدها :

أيهـــا الراكب المجـــد ابتكارا
قد قضى من تهامة الأوطارا

من يكن قلبـــه صحيحا سليما
ففؤادى بالخيف أمسى معارا

ليت ذا الدهر كان حتما علينا
كل يومين حجة واعتمارا (٥٤)

وهكذا نجد اختلاف الروايات فى رغبة المرأة فى أن تذكر فى الشعر أو عدم رغبتها وكل هذه الروايات تدل على حرية المرأة من الطبقة المترفة ·

ويجب التنبه الى أن هذه الأمثلة من النساء يمثلن طبقة قليلة جدا من النساء تعد بالعشرات وليس بالمئات ·

وهناك أيضا روايات قليلة جدا تذكر أن بعض النســـاء من الطبقة الارستقراطية كن يملن الى شرب الخمر مثل أم حكيم والتى كان يطلق عليها الواصلة بنت الواصلة أو الموصلة بنت الموصـــلة لأنها وأمها وصلتا بالجمال واسمها زينب وهى زوجة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك · وأم هشام بن عبد الملك · ويقال انها كانت منهومة بالشراب مدمنة عليه لا تكاد تفارقه وكأســـها الذى كانت تشرب فيه مشهور عند الناس يقول الوليد بن يزيد ·

---

(٥٤) الاغانى ١ / ١٦٦ . ١٦٧ ·

علانى بعاتقـــات الـــكروم
واســـقيانى بكأس أم حكيم

انهـــا تشرب المـــدامة صرفا
من اناء من الزجاج عظيم (٥٥)

وبطبيعة الحال لا يمكن القياس على تلك الحالة والا اتهمنا نساء العصر الأموى بمعاقرة الخمر وادمان الشراب وهذا غير صحيح أما تلك الحالة فحالة مرضية شاذة والشاذ لا يقاس عليه واذا حاولنا أن نقيس على الشائع الواضح لوجدنا أن المرأة فى العصر الأموى كانت محافظة على حيائها وحجابها وعفتها وقد أفسد خيال الشعراء صورتها أو حاول افسادها فجنى على المرأة العربية الحـــرة . والحقيقة أن الشعراء كانوا يستعيرون اسماء الشريفات الحرائر فى شعرهم الغزلى دون معرفة حقيقية أو صلة بأولئك النسوة .

واذا كان هناك روايات حاولت أن تنال من عفة المرأة فهناك الكثير من الروايات التى توضح عفتها وتمسكها بأهداب الفضيلة وبعدها عن كل ما يشين .

وأما الاخبار التى ذكرت عن السيدة سكينة بنت الحسين وعن لقائها بالشعراء فيجب التنبه الى أن هذه اللقاءات كانت من وراء ستار فكانت تراهم ولا يرونها وتسمعهم ولا يسمعونها ثم ترســل برأيها وحكمها مع جاريتها المثقفة بالثقافة الأدبية الواسعة وقد أشار صاحب الأغانى فى بعض المواضع الى ذلك أما من يقول غير ذلك بالنسبة لحفيدة رسول الله فهو مغرض لا شك فى ذلك .

---

(٥٥) الاغانى ١٦ / ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

ومن الأمثلة التى توضح افتراء الشعراء وكذبهم على النساء ما رواه صاحب الأغانى عن الأحوص وصاحبته أم جعفر ومن بديع شعره فيها :

لقد منعت معروفها أم جعفر
وانى الى معروفها لفقـــير

وقد أنكرت بعد اعتراف زيارتى
وقـد وغرت فيها على صدور

أدور ولولا أن أرى أم جعفـــر
بابياتكم مـــا درت حيث أدور

أزور البيوت اللاصـقات بيتها
وقلبى الى البيت الذى لا أزور

وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى
اذا لم يزر لابد أن سيزور (٥٦)

روى صاحب الأغانى انه لما اكثر من ذكرها جـاءت منتقبة فوقفت عليه فى مجلس قومه وهو لا يعرفها ·فقالت له : اقض عن الغنم التى ابتعتها منى ، فقال ما ابتعت منك شيئا · فاظهرت كتابا قد وضعته عليه وبكت وشكت حاجة وضرا وفاقة · وقالت : يا قوم كلموه فلامه قومه وقالوا : اقض المرأة حقها فجعل يحلف انه ماراها قط ولا يعرفها ، فكشفت وجهها وقالت : ويحك اما تعرفنى ، فجعل

---

(٥٦) الاغانى ٢٥٨/٦ ·

يحلف مجتهدا أنه لا يعرفها ولا رآها قط حتى استفاض من قولها وقوله ٠ واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار وكثر لغطهم وقالت : يا عدو الله صدقت والله مالى عليك حق ولا تعرفنى وقد حلفت على ذلك وانت صادق ٠ وانا أم جعفر وانت تقول قلت لأم جعفر وقالت لى أم جعفر فى شعرك فخجل الأحوص وانكسر عند ذلك ٠

ومما يروى عن عفتها وحجابها ما ذكر من أن الحجاج بن يوسف الثقفى (قال لليلى الأخيلية : أنشدينا بعض ما قاله توبة فيك فأنشدته هذا البيت :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت
فقد رابني منها الغداه سفورها

فقال الحجاج : ياليلى ما الذى رآه من سفورك ، فقالت : ما رآنى قط الا متبرقعة) (٥٧) ٠

وروى عثمان الضحاك قال : (خرجت اريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فاذا بجارية جالسة على باب خيمة فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب :

بزينب ألمم قبل ان يرحل الركب
وقل لا تملينا فما ملك القلب

فقالت : يا هذا اتعرف قائل هذه الأبيات ؟ قلت : بلى هو

---

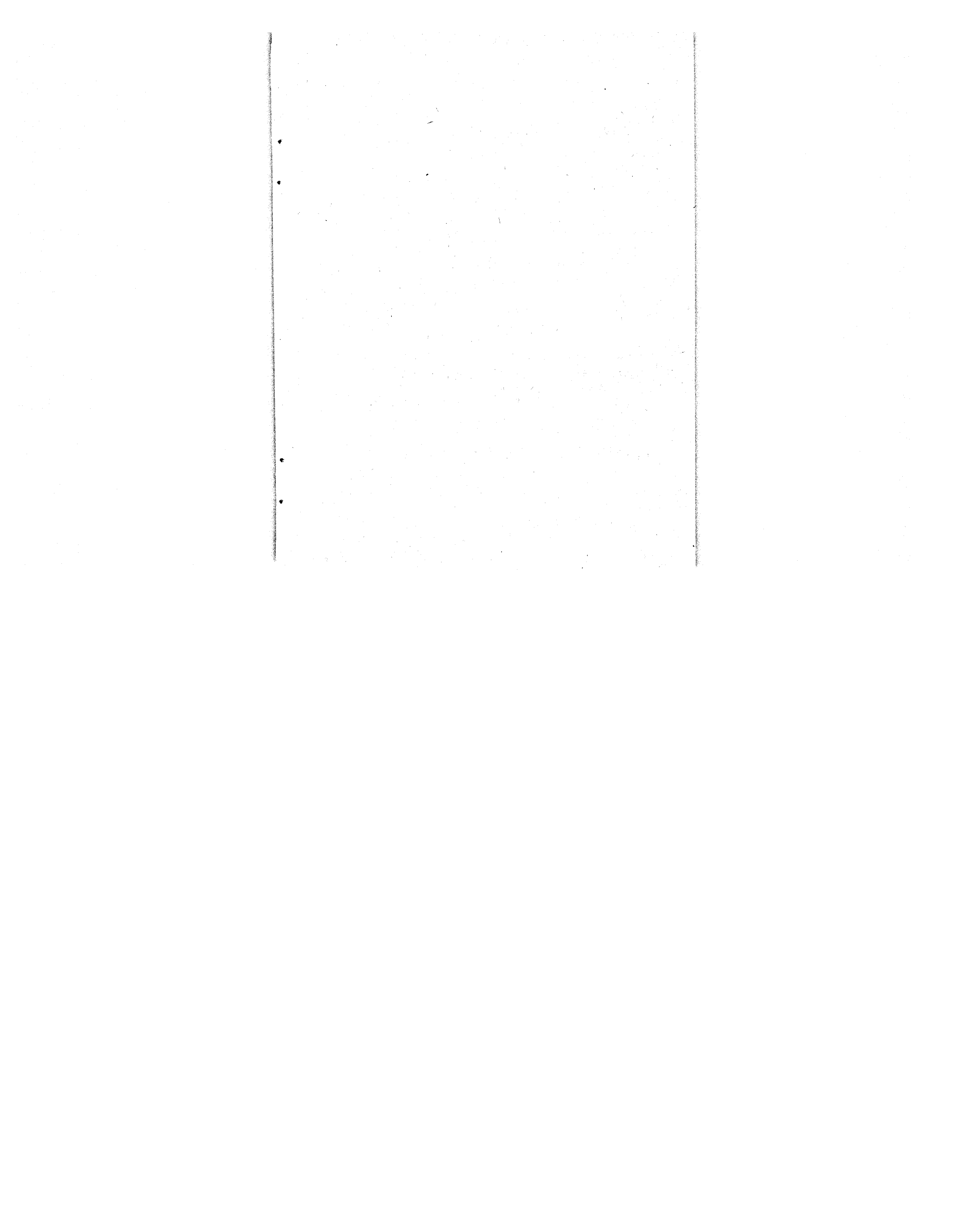
(٥٧) شاعرات العرب ٣٦٧ ٠

نصيب · فقالت : أتعرف زينب ؟ قلت لا : قالت : أنا زينب قلت : حياك الله وبياك · قالت : والله ان اليوم موعده وعد فى العـام الأول بالاجتماع فى هذا اليوم فلعلك لا تبرح حتى تراه قال : فبينما هى تكلمنى اذا براكب · قالت : ترى ذلك الراكب قلت : نعم قالت: انى لأحسبه اياه فاقبل الراكب فاذا هو نصيب فنـــزل قريبا من الخيمة ثم اقبل فسلم ثم جلس قريبا منها · فسالته أن ينشدها ، فأنشدها · فقلت فى نفسى محبان قد طال التنائى بينهما فلابد أن يكون لأحدهما الى صاحبه حاجة فقمت الى بعيرى لأشد عليــــه فقال نصيب : على رسلك انى معك فجلست حتى نهض معى فسرنا وتسامرنا فقال لى : أقلت فى نفسك محبان التقيا بعد طول ثناء فلابد أن يكون لأحدهما الى صاحبه حاجة · قلت : نعم · قال : ورب هذا البيت منذ احببتها ما جلست منها مجلسا هو اقرب من مجلسك هذا ، فتعجبت لذلك وقلت والله هـــــذه هى العفة فى المحبة (٥٨) ·

والأخبار كثيرة عن جميل وكثير وتـــوبة والمجنون وغيرهم توضح كيف كانت عفتهم ومبلغ عفاف محبوباتهم فالمجتمع العربى لم يفسد فى هذا العصر والمرأة لم تجنح الى الاباحية والمجـــون والأمر كله أن البيئة المترفة نالت قسطا من الحرية لم يمنح للمرأة العربية من قبل فكثرت الروايات الصادقة احيـــانا والمفتراة فى أحيان أخرى وكثر نسج الأحاديث التى صورت هذه الحرية فسادا فشاع الأمر ونال المرأة منه بعض السهام وهى بريئة من هـــذه الاتهامات ·

---

(٥٨) الاغانى ٦ / ١٢٤ دار الكتب ـ المستطرف ٢ : ١٤٦ مع اختلاف فى الالفاظ ·



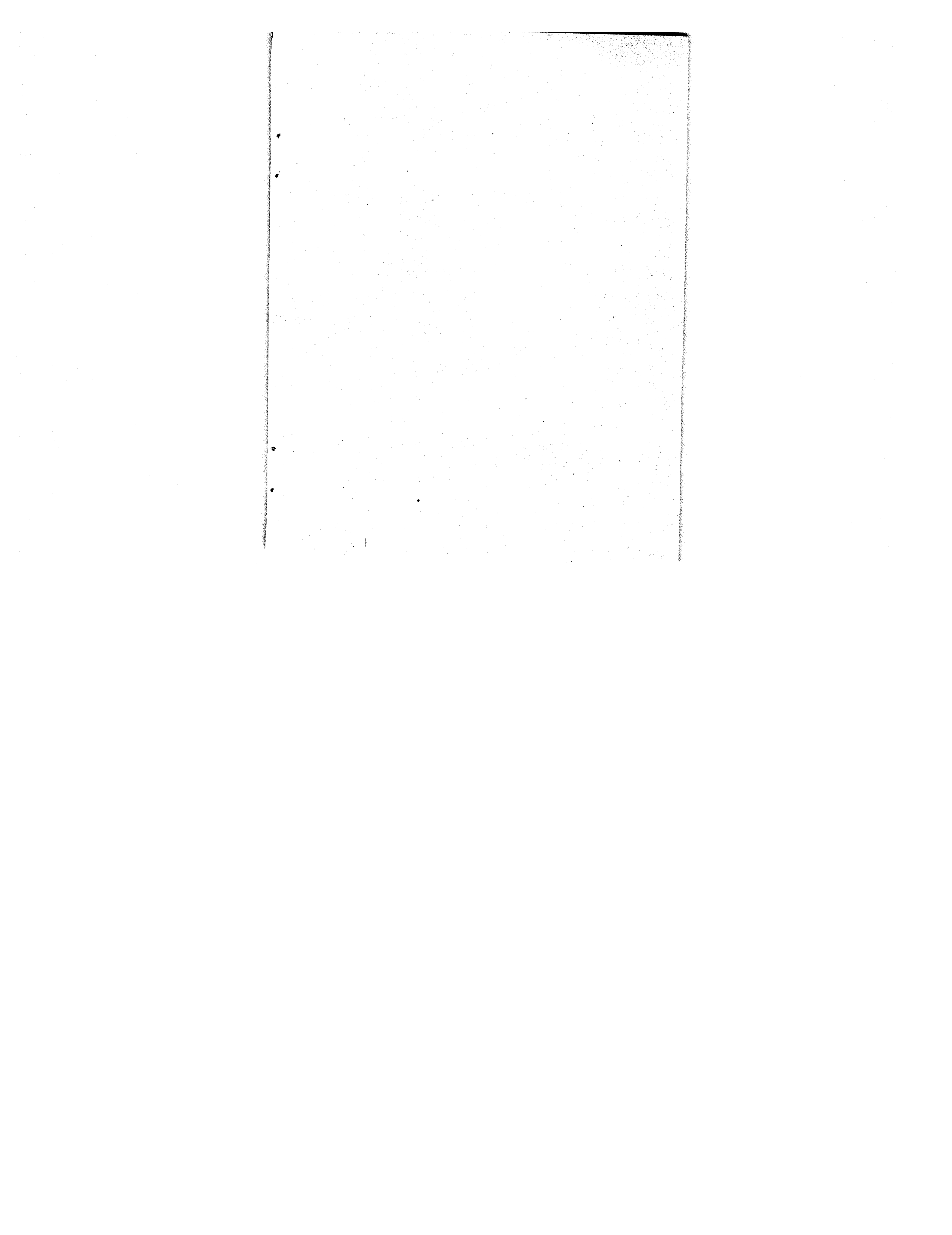
الفصـــل الثـــانى

المرأة فى الشـــعر الاموى

أولا : المراة الشاعرة

ثانيا : المرة فى شعر الشعراء

ثالثا : المراة فى شعر عمر بن أبى ربيعة



الفصـــل الثـــانى

أولا : المرأة الشاعرة فى العصر الأموى :

مما سبق يتبين لنا أن المرأة كان لها دور ايجابى فى حيـاة المجتمع الاسلامى فى العصر الأموى فقد شـــاركت فى حيـــاته السياسية والفكرية . كما برزت شخصيتها فى مجـــال الحياة الاجتماعية فترى هل شاركت فى الحياة الأدبية كشاعرة أو أنها اكتفت بتذوق الشعر ونقده ؟ هل كانت موهوبة قـــادرة على قول الشعر ؟ واذا كانت الاجابة بالايجاب فهل طرقت نفس الموضوعات التى تناولها الرجال ؟ وأى الموضوعات طرقت ؟ وهل أجادت ؟ وهل تميز شعرها بطوابع مميزة ؟ وهل تفوقت ؟

لن أدعى للمرأة شيئا ليس لها . ذلك أن دورها فى الحياة عظيم لن يقلل من قدره قلة انتاجهـــا أو حتى اخفاقها فى بعض المجـــالات .

المرأة هى المجتمع الناهض المتقدم أو الضعيف المنهار بقوتها أو ضعفها يقوى أو يضعف مجتمعها . وهى مؤثر شديد الفاعلية فى بنائه أو هدمه وضياعه . المرأة هى العطـــاء ممثل فى الأم الحنون والزوج المضحية فى سبيل راحة زوجها وسعادة أبنائها . واذا كانت المرأة على هذه الصفات فهى السعادة لمجتمعها . وأما اذا تميزت بنقيض تلك الصفات فهى الشقاء والانهيار لكيان المجتمع فهى اما رحمة وهدى أو نكبة ما لها من دافع وكما يقول الشاعر :

رأيت الأمهـــات كـــل شىء
يكن لدى الممالك محـــدثات

دعاة الشر والاصلاح منها
ورسل الموت فيها والحياة

فهن يكن اما بانيات
اذا نهضن واما هادمات (١)

وعلى هذا حكمنا أن المرأة هى المجتمع كله فهى وراء كل ما فيه وهى أمام كل متقدم أو متأخر ٠

ومن الضرورى أن نعترف أننا بعد البحث وجدنا أن شعر المرأة منذ الجاهلية والى العصر الذى ندرسه أقل من شعر الرجل٠ وكما تفوق الرجل على المرأة فى الكم تفوق عليها فى الكيف أو التنوع فى الموضوعات والأغراض ولهذه الظاهرة أسباب لعل أهمها :

١ ـ اختلاف طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل واذا أردنا الحديث عن وجوه هذا الاختلاف أطلنا فى بديهيات معروفة نرى أنه من التعصب المقيت انكارها فالمرأة فى تكوينها وطبيعتها تختلف عن الرجل فما يميل اليه لا تحبه وما يريد أن يحققه قد لا ترغب فيه وهكذا ٠ فالاختلاف الجوهرى بين الطبيعتين قد يكون أهم الأسباب فى هذه الظاهرة ٠

ومن هذه الأسباب أيضا (٢) :

٢ ـ أن الراوة فى عصر الجمع والتحصيل كانوا حراصا

---

(١) ديوان أحمد محرم ٢ / ٢٤٥ ٠
(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى ٦٠٥ ـ ٦٠٦ بتصرف ٠

على الغريب فكانوا يأخذون عن الأعراب لأنهم يقدرون فى الشعر قيمته اللغوية وشعر النساء قليل الغريب فلم يحفل الرواة بروايته واذاعته ٠

٣ ـ وشعر النساء موحد الغرض فى القصيدة الواحـــدة وربما حسب الرواة هذا عجزا لأن العرب جـــروا على تعـــدد موضوعات القصيدة وتنوع أغراضها وألف الرواة هذا التعدد ٠

٤ ـ كان الشاعر لسان قبيلته يذيع محامدها ويهجو خصومها ولم تكن المرأة لتقوم فى القبيلة هذا المقام لذلك قل فى شعر النساء ذكر الحروب فلم يجد المؤرخون فيه طلبهم ٠

٥ ـ وربما كان مرد بعض ذلك الى لون من التعصب فقد ضرب المثل ببعض الشعراء فى اجادة فنون خاصة ولم يضرب بالخنساء مثلا فى اجادتها فن الرثاء ٠

٦ ـ وقد يكون من بواعث هذا الاغفال ان العـــرب يؤثرون الفحولة والجزالة فى الشعر وقد وجدوا فى شعر الرجـــال قوة ورصانة فاحتفوا به ٠ ووجدوا فى شعر النساء لينا فلم يحفلوا به ٠

موضوعات شعرها :

اولا :الرثاء : أصدق الفنون الشعرية والصقها بالمشـــاعر والأحاسيس ولأن النساء أشجى من الرجال قلوبا عنـــد الفجيعة وأشد منهم حزنا وأعظم لوعة وقلوبهن أسرع انخلاعا فان موضوع الرثاء هو أهم موضوعات الشعر التى نظمت فيها المرأة ٠

ومنذ العصر الجاهلى اشـــتهرت المـرأة بالرثاء وأشـــهر

شاعراته كانت الخنساء وجليلة بنت مرة · وكان رثاء السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أجود الرثاء ·

وفى عصر بنى أمية كثرت شاعرات الرثاء نتيجة للظروف السياسية وتعدد الأحزاب ·وكانت نساء الشيعة أكثر المفجوعين فى هذا العصر فكثرت الشاعرات فيهن وظهر عنصر البكاء وتصوير الحزن لكثرة الكوارث والنكبات التى ألمت بأئمتهم وقوادهم وما أصابهم من قتل وتنكيل · ونتيجة لما عانوه طبع رثاؤهم بالحزن القاتم وتفننوا فى تصوير حزنهم · ورثاء الشيعة ملىء بالالم والدموع حتى ليضرب بهم المثل فى رقة البكاء وكثرته فيقال :

أرق من دمعة شيعية
تبكى على ابن أبى طالب (٣)

فقدت نساء الشيعة فى حروبهم مع بنى أمية الزوج والأخ والابن والامام ومن شاعرات الشيعة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ت حوالى ٥٠ هـ · ومن رثائها لعلى بن أبى طالب :

ألا يا عين ويحك أسعدينا
ألا وابكى أمير المؤمنينا

رزئنا خير من ركب المطايا
وفارسها ومن ركب السفينا

---

(٣) مجمع الامثال ·

ومن لبس النعال أو احتذاها
ومن قـــرأ المثـانى والمئينا

اذا استقبلت وجه أبى حسين
رأيت البدر راع النـــاظرينا

ولا والله لا أنس عليـــــــا
وحسن صلاته فى الراكعينا

أفى الشهر الحرام فجعتمونا
بخير الناس طرا اجمعينا (٤)

والأبيات مليئة بالدموع على فقدان أمير المؤمنين ثم تذكر الشاعرة مناقبه وتختار الشاعرة الفاظا مناسبة للرثاء مثل البكاء — ورزئنا — فجعتمونا أما ما عـــدا هذا فالرثاء يشبه شـــــعر المناسبات ٠

ومن رثاء الزوجة الشيعية لزوجها رثاء الرباب بنت امرىء القيس بن عدى للحسين بن على رضى الله عنهما قالت :

ان الذى كان نور يستضاء به
بكربلاء قتيـــل غير مدفون

سبط النبى جزاك الله صالحة
عنا وجنبت خسران الموازين

---

(٤) شاراعت العرب : ٤ ٠

فقد كنت لى جبلا صعبا الوذ به
وكنت تصحبنا بالرحم والدين

من لليتامى ومن للسـائلين ومن
يعفى ويأوى اليه كل مسكين

والله لا ابتغى صهرا بصهركم
حتى أغيب بين الرمل والطين (٥)

والأبيات تظهر فيها العاطفة الصادقة على فقدان الزوج القوى المسلم الصالح ملاذ الناس جميعا كما يظهر فى الأبيات حسن اسلام الرباب وهى تدعو الله له بحسن الجزاء على ما قـــدم من عمل صالح .

ومن رثاء الأبناء ما قالته ام حكيم زوج عبيد الله بن العباس أمير اليمن للخليفة على بن أبى طالب كرم الله وجه فى رثاء طفليها وكان معاوية قد بعث قائده بسر بن أرطاة الى اليمن ففر من وجهه عبيد الله فعمد بسر الى طفليه الصغيرين فذبحهما بمدية فقالت امهما ترثيهما :

يا من أحس بابنى واللذين همـا
كالدرتين تشظى عنهما الصدف

يا من أحس بابنى اللذين هما
سمعى وقلبى،فقلبى اليوم مزدهف

---

(٥) الاغانى ١٦ / ١٢ .
(٦) الحياة ا لادبية فى العصر الاموى : ١٦٠ .

يا من أحس بابنى اللذين هما
مخ العظا م،فمخى اليوم مختطف

تبئت بسرا ،وما صدقتمازعموا
من قولهم ومن الافك الذى اقترفوا

أنحى على ودجى ابنى مرهفة
مشحوذة وكذاك الاثم يقترف

حتى لقيت رجالا من أرومته
شم الأنوف لهم فى قومهم شرف

فالآن ألعن بسرا حق لعنته
هذا لعمر أبى بسر هو السرف

من دل والهة حيرى مدلهة
على صبيين ضلا ،اذ غدا السلف

والأبيات تصور فجيعة الأم التى ثكلت فى طفليها وتصور قسوة البغاة .

ومن رثاء الأب ما دونه التاريخ للسيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فى رثاء أبيها الامام الحسين رضى الله عنه قالت :

لا تعذليه فهم قاطع طرقه
فعينه بدموع ذرف غدقه

ان الحسين غداة الطف يرشقه
ريب المنون فما ان يخطىء الحدقه

بكف شر عباد الله كلهـــم
نسل البغايا وجيش المرق الفسقه

أأمةالسوء هاتوا ، ماأحتجاجكم
غدا ، وجلكم بالسيف قد صفقه

الويل حـل بكم الا بمن لحقـــه
صيرتموه لأرماح العــدى درقه

يا عين فاحتفلى طول الحياة دما
لا تبك ولدا ولا أهـــلا ولا رفقه

لكن على ابن رسول الله فانسكبى
دما وقيحا ، وفى اثريهما العلقه(٦)

والأبيات يمكن أن نطلق عليها صرخة ابنة ثكلى وفيها ذكر لوفاة الحسين رضى الله عنه وهجوم على خصومه واســـتدعاء للدموع وفخر بالمرثى والرثاء ليس فيه ما يميزه عن رثاء سواها من النساء فى الاسلام المتفجعات على من فقدن · ويظهر فيه فكرة الحساب والعقاب والبعث والنشور (أأمه الســـــوء هاتوا ، ما حتجاجك غدا) ·

أما أهم شاعرات الرثاء فى العصر الأمـــوى فكانت ليلى الأخيلية · وشعرها فى رثاء حبيبها توبه بن الحمير :

وكان توبة يهواها ويقول فيها الشعر فخطبها الى أبيها فابى

(٦) الامالى للزجاج : ١٠٩ · شاعرات العرب

أن يزوجه وزوجها من بنى الأدلع ، ثم أن توبة كان يكثر زيارة ليلى فعاتبه قومها وشكوه الى قومه فلم يقنع فتظلموا الى السلطان فأهدر دمه ان أتاهم . وعلمت ليلى بذلك . وجاء زوجها وكان غيورا فحلف لئن لم تعلمه بمجيء توبة ليقتلنها فلما علمت بمجيء توبة خرجت سافرة حتى جلست فى طريقه فلما رآها سافرة فطن لما أرادت وعلم أنهم قد رصدوه وأنها سفرت لذلك تحذره فركض على فرسه فنجا وقال فى ذلك قصيدة طويلة منها (٧) .

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت
فقد رابنى منها الغداة سفورها

ثم ان توبة قتلته بنو عوف فى احدى الغارات حوالى ٨٠ هـ فحزنت عليه ليلى حزنا شديدا وخلعت الزينة حتى ماتت بعده بزمن طويل وقالت فيه المراثى الكثيرة . ومن رثائها فيه قولها : (٨)

أقسمت أرثى بعـــد توبة هالكا
وأحفل من دارت عليـــه الدوائر

لعمرك ما بالموت عار على الفتى
اذا لم تصبه فى الحياة المعاير

وما أحد حى وان عاش سـالما
بأخـــلد ممن غيبت)ه المقـابر

---

(٧) الاغانى ١١ / ٢٠٥ .
(٨) الاغانى ١١ / ٢٣٤ أى أقسمت ألا أرثى .

ومن كان مما يحدث الدهر جازعا
فلابد أن يرى وهـــو صـــابر

وليس لذى عيش عن الموت مقصر
وليس على الأيام والدهر غابر

ولا الحى مما يحدث الدهر معتب
ولا الميت ان لم يصبر الحى ناشر

وكل شباب أو جـــديد الى بلى
وكل امرىء يوما الى الله صائر

وكل قرينى الفـــة لتفـــرق
شتاتا وان ضنا وطال التعاشر

فلا يبعدنك الله حيـــا وميتـــا
أخا الحرب ان دارت عليه الدوائر

ويروى :

فلا يبعـــدنك الله ياتوب هالكا
أخا الحرب ان دارت عليه الدوائر

فآليت لا أنفك أبكيك ما دعـــت
على فتن ورقاء أو طار طـــائر

قتيل بنى عوف فيالهفتـــا لـــه
وما كنت اياهم عليـــه أحاذر

ولكنمــــا اخشى عليــــه قبيــــلة
لها بدروب الروم باد وحاضر (٩)

والشاعرة تبدو صادقة العاطفة ، حزينة حزنا شديدا على فراق توبة · وهى ترى انه لا احد يستحق الرثاء بعد توبة فالحياة رخيصة الثمن زهيدة بعده والناس ليس فيهم من يستحق الحزن عليه ثم تسلى نفسها وتصبرها بمجموعة من الحكم توضح حتمية الموت وأنه نهاية كل شيء حى فكل انسان لابد صائر يوما اليه · ويظهر فى حكمها التأثر الشديد بالاسلام والاقتباس من القرآن الكريم كما تظهر فيها عاطفة دينية لا رياء فيها ولا نفاق ·

وأما حكمها فجاءت فى (وما احد حى وان عاش سالما – وكل امرىء يوما الى الله صائر – وليس لذى عيش عن الموت مقصر – وكل قرينى الفة لتفرق) وهذه الحكم اقتبست من معانى الآيات الكريمة « وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة » (١٠) – « كل شيء هالك الا وجهه » (١١) – « ولكل امة اجلا فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة » (١٢) – « وما نؤخره الا لأجــــل معدود » (١٣) – « وما كان لنفس أن تمــــوت الا باذن الله كتابا مؤجلا » (١٤) ·

وتبدو الشاعرة مؤمنة بقضاء الله هادئة متأملة فى سنن الوجود والفناء وقدرة الله جل وعلا الذى ينشىء الخلق ثم يهلكه·

---

(٩) الاغانى ١١ / ٢٣٤ ·
(١٠) سورة الاسراء آية ٥٨ ·
(١١) سورة القصص آية ٢٨ ·
(١٢) سورة الاعراف آية ٧ ·
(١٣) سورة هود آية ١١ ·
(١٤) سورة آل مران آية ٣ ·

وقد جنحت الشاعرة الى التعميم فى نظرتها فهى لم تقصر حديثها على مصيبتها الشخصية وانما نظرت نظرة شـــاملة الى حال الكون وحكمة الله فى خلقه ٠ وهذه النظرة الشمولية عرفت فى شعر الرجال أكثر من شعر النساء ٠

والشاعرة تعتمد على الحكمة فى كثير من رثائها وحكمتها دائما مقتبسة من حكم القرآن الكريم ٠ قالت تهدد قابضا الذى قتل توبة وتحذره حيث لا حذر :

جزى الله شرا قابضا بصـــنيعه
وكل امرىء يجزى بما كان ساعيا

وكأنى بها تتمثل الآيات الكريمة « من كفر فعليه كفره »(١٥)، « من عمل صالحا فلنفسه ومن أســـاء فعليهـــا ثم الى ربكم ترجعون » (١٦) ، « من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها » (١٧) ٠

والحكمة فى رثاء ليلى الأخيلية تأتى أحيانا قبل البدء فى الرثاء كتمهيد وفى أحيان أخرى تأتى فى صـــميم تصوير الأسى والحزن وما سببه لها فقدان الفقيد تقول : (١٨)

لتبك عليه من خفاجة نســوة
بماء شئون العبرة المتحـــدر

---

(١٥) سورة الروم آية ٣٠ ٠
(١٦) سورة الجاثية آية ٤٥ ٠
(١٧) سورة غافر آية ٤٠ ٠
(١٨) الاغانى ١١ / ٢٣١ ٠

سمعن بهيجا أزحفت فذكـــرته
وقد يبعث الأحزان طـول التذكر

وظاهرة العناية بالحكمة لم تظهر بوضوح فى شعر النساء فيما عدا ليلى الأخيلية ، أما رثاء النساء عامة فيتسم بقلة الحكمة ويعلل د٠ الحوفى قلة الحكمة فى رثائهن فيرجعها الى استغرقهن فى النواح ويقول أيضا (ولعل مرد ذلك الى أن المــرأة تجنح الى التخصصية والرجل يجنح الى التعميم فنظرته شاملة ونظـــرتها جزئية ونظرته موضوعية مجردة ونظرتها فردية محددة لهـذا لم تمد نظرها الى ما وراء الفاجعة من عبر وعظات ومفارقات)(١٩)ـ ثم أن المرأة أقوى وأحد من الرجل عاطفة ، وعاطفة حزنها تتجلى فى هلعها وجزعها وعويلها ونحيبها وصياحها برزئها وليس هذا مجال الحكمة فالحكمة وليدة العقل والتفكير وهذه العاطفة الملتهبة تقضى على العقل والتفكير) (٢٠) ٠

ومن أهم السمات التى تظهر فى رثاء النساء اظهار شـــدة اللوعة والألم والنواح والبكاء وحث الدموع على البكاء ثم الفخر بمكانة المرثى تقول ليلى الأخيلية :

أعينى ألا فابكى على ابن حمير
بدمع كفيض الجدول المتفجر (٢١)

وتقول :
كم هاتف بك من باك وباكيـــة
يا توب للضيف اذ تدعى وللجار

---

(١٩) المرأة فى الشعر الجاهلى ٦٢٥ ٠
(٢٠) ن ٠ م ص ٦٢٦ ٠
(٢١) الاغانى ١١ / ٢٣٥ ٠

وتوب للخصم ان جاروا وان عدلوا
وبدلوا الأمر نقضا بعد امـــرار

ان يصدروا الأمر تطلعه موارده
أو يوردوا الأمر تحلله باصدار (٢٢)

ومن امتداح أخلاق الفقيد والنواح قولها :

لنعم الفتى ياتوب كنت ولم تكـن
لتسبق يوما ماكنت منـه توائل

ونعم الفتى ياتوب كنت اذا التقى
صدور العوالى واستشال الأسافل

ونعم الفتى ياتوب كـنت لخائف
أتاك لكى يحمى ونعم المنـــازل

ونعم الفتى ياتوب جاراً وصاحباً
ونعم الفتى ياتوب حين تفاضـل

أبى لك ذم النـــاس ياتوب انما
لقيت حمام الموت والمـوت عاجل

ولا يبعـــدنك الله ياتوب انمـــا
كذاك المنـــايا عاجـــلات وآجل

ومما سبق يتضح أن المرأة عنيت بفن الرثاء فى هذا العصر

(٢٢) الاغانى ١١ / ٢٣٥ .

ورثت الزوج والابن والأخ والحبيب والامام وعنايتها بهذا الفن انما تدل على وفائها وسمو أخلاقها ·

ثانيا : المديح :

من أهم فنون الشعر العربى وأقدمها وكان فى أوليته فنـــا رفيعا يقصد به الى من أسدى خيرا الى قومه أو قـــدم لهم نفعا ويمثله فى الجاهلية مدح زهير بن أبى سلمى لهرم من ســـنان والحارث بن عوف · الا أن بعض الشعراء قد جعلوا همهم التكسب بالمديح والاتجار به فهبطت منزلته ولكنه أصبح من حيث الكم أكبر دواوين الشعر العربى لذا وجهت عناية كبيرة الى وضع مقاييس لجودته وارشاد الشعراء الى أحسن الطرق التى يجـــودون بها مدائحهم فتحدثوا عما ينبغى فى معانيه ومنهج تأليفه وأفضـــل شعرائه · والصفات التى يجب أن يراعيها الشاعر فى ممدوحه من خلق ودين وعدل وشجاعة ···· الخ من الفضائل المتعارف عليها وقد تفوق الشعراء من الرجال فى هذا المجال تفوقا عظيما ·

أما النساء فقلدوا الرجال ولا نستطيع أن نميز بين مديح الرجال ومديح النساء الا من حيث لين الأسلوب ·

وفى العصر الأموى ازدهر شعر المدح ازدهارا عظيما ونشأ عنه الشعر السياسى · وقد مدحت نساء الشيعة أئمتهم وأكثر هـــذا الشعر مقطوعات قصيرة ومن أمثلته قول أم سنان بنت خيثمة فى على ابن أبى طالب :

هذا على كالهـــلال تحفـــه
وسط السماء من الكواكب أسعد

خير الخلائق وابن عم محمـــد
ان يهدكم بالنور منه تهتـــدوا

مازال مذ شهد الحروب مظفــرا
والنصر فوق لوائه ما يفقد (٢٣)

وليس للمرأة قصائد طويلة فى المديح وانما هى أبيات قالتها حين الوفود على الأمراء ومن ذلك أن ليلى الأخيلية وفدت على الحجاج بن يوسف الثقفى ٠ فقال : ما أتى بك ياليــلى ؟ قالت : اخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد وكنت لنا بعد الله الرد قال : فأخبرينى عن الأرض قالت : الأرض مقشـــعرة والفجاج مغبرة وذو الغنى مختل وذو الحد منفل ٠ قال : وما سبب ذلك قالت : أصابتنا سنون (٢٤) مجحفة (٢٥) مظلمة ما لم تدع لنا فصيلا ولا ربعا (٢٦) ولم تبق عافطة (٢٧) ولا نافطة (٢٨) فقد أهلكت الرجال ومزقت العيال وأفسدت الأموال ٠ ثم أمـــرها أن تنشده بعض شعرها فى توبة فأنشدته فقال الحجاج لحاجبه : اذهب فاقطع لسانها فدعا لها بالحجام ليقطع لسانها فقالت : ويلك انما قال لك الأمير اقطع لسانها بالعطاء والصـــلة ، فارجع اليــه وأستأذنه ٠ فرجع اليه فاستأمره ، فاستشاط عليه وهم بقطع لسانه، ثم أمر بها فدخلت عليه ، فقالت : كاد وعهد الله أن يقطع مقولى وأنشدته :

حجاج أنت الذى لا فوقه أحـــد
الا الخليفة والمستغفر الصـــمد

---

(٢٣) شاعرات العرب ٠

(٢٤) السنون : القحوط ٢٥ـ ومجحفة قاشرة تجترف المال وتذهب به٠

(٢٦) الربع : ما نتج عن الربيع ٠

(٢٧) عافطة : ضائنة ـ نافطه : الماعزه ٠

حجاج أنت سنان الحرب ان نهجت
وأنت فى الداجى لنا تقد (٢٨)

والقصة توضح أدبها ومقدرتها اللغوية وذكاءها وقوة بديهتها أما الشعر فمعانيه سطحية والفاظه من المستعملة فى الحياة اليومية فالبيت الأول من المعانى البسيطة المتداولة فى الحياة اليومية وأما الثانى فتمدحه فيه بالشجاعة فى الحرب وارشاد الناس الى الحق ٠

وهناك قصة أخرى فى وفودها على الحجاج ومديح آخر ٠ قال صاحب الأغانى (بينما الأمير جالس اذ استؤذن لليلى فقال الحجاج : ومن ليلى ؟ قيل : الأخيلية صاحبة توبة ٠ قال : ادخلوها فدخلت امرأة طويلة دعجاء العينين حسنة المشية الى القوة ما هى، حسنة الثغر فسلمت فرد الحجاج عليها ورحب بها ٠ قالت : السلام على الأمير والقضاء لحقه والتعرض لمعروفه ـ قال : وكيف خلفت قومك ؟ قالت : تركتهم فى حال خصبة وأمن دعة أما الخصب

ففى الأموال والكلأ وأما الأمن فقد أمنهم الله عز وجل بك ، وأما الدعة فقد خامرهم من خوفك ما أصلح بينهم ثم قالت : ألا أنشدك؟ فقال : اذا شئت فقالت :

أحجاج ان الله اعطاك غاية
يقصر عنها من أراد مداها

أحجاج لا يفلل سلاحك انما الـ
منايا بكف الله حيث تراها

---

(٢٨) الاغانى ١١ / ٢٤١ ، ٢٤٢ ٠

اذا هبط الحجاج أرضا مريضة
تتبع أقصى دائها فشـــفاها

شفاها من الداء العضال الذى بها
غلام اذا هز القناة ســـقاها

سقاها من دماء المارقين وعلها
اذا جمحـــت وخيف اذاهـــا

اذا سـمع الحجاج رز كتيبـــة
أعد لها قبـل النزول قراها

أعد لهـــا مصقولة فارســـية
بأيدى رجـال يحلبون صراها

أحجاج لا تعط العصاة مناهم
ولا الله يعطى للعصـــاة مناها

ولا كل خـــلاف تقلد بيعـــة
فاعظم عهد الله ثم شراها (٢٩)

فاستحسن الحجاج شعرها ومنحها خمسمائة درهم ، وخمسة أثواب خز الى غير ذلك من الجوائز والصلات ٠

وذكر أنها لما فرغت من شعرها اقبل الحجاج على جلسائه فقال لهم : اتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله ما رأينا افصح ولا

(٢٩) الاغانى ١١ / ٢٤٨ ٠

ابلغ منها ولا أحسن انشادا . قال : هذه ليلى الأخيلية صاحبة توبة (٣٠) . وروى نفس الخبر مرة أخرى وزاد فيه فلما قالت غلام اذ هز القناة سقاها . قال : لا تقولى غلام . قولى همام(٣١)

وذكر صاحب زهر الآداب أن الحجاج عنده اقال : أتدرون من هذه ؟ قال هذه ليلى الأخيلية التى تقول :

نحن الأخايل لا يزال غـــلامنا
حتى يدب على العصــا مذكورا

تبكى الرماح اذا فقدنا أكفنــا
حــزنا وتلقانا الرفاق بحــورا

وذكر أنها وفدت على معاوية بن أبى سفيان وأنها مدحتــه بقولهــا :

معاوى لم أكـــد آتيـك تهوى
برحلى نحو ســـاحتك الركاب

تجوب الأرض نحوك ما تأنى
اذا ما الأكم قنعهـــا السراب

وكنت المرتجى وبك استغاثت
لتنعشها اذا بخل السحاب (٣٣)

---

(٣٠) الاغانى ١١ / ٢٤٩ .
(٣١) الاغانى ١١ / ٢٤٩ .
(٣٢) زهر الاداب ٢ : ٩٣٨ . والشعر يعد فى فن الفخر الذى عرف واشتهر منذ الجاهلية .
(٣٣) زهر الاداب ٢ / ٩٣٢ .

ويلاحظ فى مديح ليلى الأخيلية قوة الألفاظ وجزالتهــا وان المعانى لا ابتكار فيها ولا تجديد فهى نفس المعانى التى دارت حولها مدائح الشعراء وهى تصف ممدوحها بالشجاعة والقوة والحــزم والعدل والجود أما المحسنات فتأتى عفو الخاطر غير متكلفة وغير مبالغ فيها وهى أيضا مما اعتادها الشعراء فى مدائحهم فلا جدة فى المحسنات ولا فى ابتكار صور معينة تنم عن شخصية المرأة ٠

الهجاء : وهو من أقدم موضوعات الشعر العربى ولحقــه تطور كبير فى عصر بنى أمية وكثر شعراؤه ٠ وقد وجد فى هــذا العصر نوعان من الهجاء ٠ هجاء قبلى جماعى هدفه التصــدى لأعداء القبيلة والدفاع عنها ضد خصومها وهجاء فردى شخصى واجتمعا معا فى فن النقائض الذى ازدهر ازدهارا عظيما فى هذا العهـــد ٠

وعلى الرغم من كثرة من نظم فى الهجاء واشـــترك فى النقائض فلم نسمع أو نقرأ عن نساء دخلن هذه المعارك ٠

وما وصل الينا من أخبار يدل على أن النساء شعرن أنهن غير قديرات على الهجاء ومقارعة الشعراء قدرة الرجال فتركن هذا الميدان ٠

ومما يدل على ذلك أنه لما هجا جرير بنى مجاشــع وعيرهم بما حل بأعين بن ضبعة والد زوجة الفرزدق اغتم نساؤهم ٠ وكان الفرزدق قد حج وعاهد الله ألا يهجو أحدا أبدا وأن يقيد نفسه ولا يحل قيده حتى يحفظ القرآن ، فأتين الفرزدق فقلن له قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك فلحيت شاعر قوم ، فأحفظنه ففض قيده وهجا جريرا (٣٤) ٠

---

(٣٤) طبقات فحول الشعراء : ٣٢٧ ٠

ومن الأخبار القليلة التى سنمعت عن هجاء النساء خبر هجاء ليلى الأخيلية للنابغة الجعدى · وكانت قد هجتـــه فهجاها فردت عليه وأنتصرت عليه على الرغم من فحشه وبذاءة الفاظه وعفة الفاظها وخلوها مما يخدش الحياء · وقصة هذا الهجاء كما رواها صاحب الأغانى (أن رجلا من قشير (٣٥) يقال له ابن الحيا (وهى أمه) واسمه سوار بن أدفى بن سبرة هجا النابغة الجعدى وسب أخواله من أزد فى أمر كان بين قريش وبنى جعدة وهم بأصبهان متجاورون فأجابه النابغة بقصيدته التى يقال لها الفاضـــحة ، وسميت بذلك لأنه ذكر فيها مساوىء قريش وعقيل وكل ما كانوا يسبون به وفخر بمآثر قومه وبما كان لسائر بطون عامر ســـوى هذين الحيين من قشير وعقيل ودخلت ليلى الأخيلية بينهما فـــرد عليها النابغة بهجاء فاحش جاء فى أوله :

ألا حييا ليلى وقولا لها هـــلا
فقد ركبت أمرا أغر محجـــلا

وقد أكلت بقـــلا وخيما بنـــاته
وقد شربت من آخر الصيف أيـــلا

فردت عليه ليلى فقالت :

أنابغ لـــم تنبغ ولـــم تك أولا
وكنت صنيا بين صدين مجهـــلا

أنابغ ان تنبغ بلؤمك لا تجـــد
للؤمك الا وسط جعيـــدة مجعلا

---

(٣٥) قوم زوج ليلى الاخيلية ·

تعيـــرنى داء بأمك مثـــله
وأى حصان لا يقال لهـــا هلا

فغلبته (٣٦) على الرغم من عفتها وفحشه ٠

والواقع أن مجال الهجاء لا يليق بالمرأة لمـــا فيه من فحش وبذاءة خفية أو ظاهرة والمرأة رقيقة حييه تبعد عن مثل هذه الأمور التى تحتاج الى تهجم وتطاول ومضغ للاعراض وسفاهة ٠

الفخر : وهو قليل فى شعر النساء وهو يكون بالـــدين أو بالانتماء الى حزب معين واختلط بالحث على القتال كما وجدنا فى الشعر المذكور فى المرأة والسياسة (٣٧) ٠

والغزل: فى شعر النساء قليل وهو لا يتعدى البيت أو البيتين وعلى هذا فشعر النساء فى هذا العصر قليل جدا وأكثره فى الرثاء

أما أشهر الشاعرات وأفصحن وأعـــلاهن مكانة فكانت ليلى الأخيلية قال عنها ابن قتيبة وليلى بنت الأخيل من أشعر النســاء لا يقدم عليها غير خنساء) (٣٨) ، وقال عنها صــاحب الأغانى (وهى من النساء المقدمات فى الشعر من شعراء الاسلام) (٣٩)٠

---

(٣٦) الاغانى ١١ / ٢٠٤ ٠
الصنى : شعب صغير يسيل منه الماء ، صدان : جبلان ٠
(٣٧) الفصل الاول من البحث ٠
(٣٨) الشعر والشعراء ترجمة توبة بن الحمير ص ١٠٢ ٠
(٣٩) الاغانى ١١ / ٢٠٤ ٠

ثانيا : المرأة فى شعر الشعراء :

مدخـــل :

عنى الشعراء بالمرأة عناية كبيرة فهى التى فجـــرت ينبوع الشعر فى عواطفهم والهبت وجدانهم وكونت خيالاتهم ·

والشعر الذى يتحدث عن المـــرأة هو شـــعر العواطف والأحاسيس الصادقة · وهو غالبا ما يكون خاليـــا من التكلف والرياء ·

الحديث عن المرأة حديث عن الطبيعة والنفس البشرية · وقد تحدث الشعراء عن المرأة واليها فى الغزل وفى الرثاء كما هددوا بها خصومهم وفضحوا نساءهم وذلك ظهر بوضـــوح فى شعر الهجاء والنقائض على وجه الخصوص وهو صادر عن عاطفـــة الحقد والحسد والكراهية ·

وسنكتفى فى هذا البحث بالحديث عن المرأة فى شعر الغزل لما يشتمل عليه من عواطف سامية واخلاص ووفاء · أما صـــورة المرأة فى شعر الهجاء ، وكما بدت فى شعر النقائض فى هجـــاء جرير لأخت الفرزدق وزوج الفرزدق أو فى هجاء الفرزدق لزوج جرير فهى صورة ممجوجة اشتملت على الصفات المكروهة والمنفرة فى المرأة وهى فى أكثرها غير صادقة ولكن لجأ اليها الشعراء نتيجة للحقد والكراهية لأعدائهم فرموا نساء خصومهم بكل العيوب والنقائص ولأن هذه الصورة غير صادقة فى أغلب الأحيان وهى لا تصور حقيقة المرأة فى العصر الأموى فلن نتعرض لها وسنكتفى بالحديث عن المرأة فى شعر الغزل ·

المرأة فى شعر الغزل :

والمرأة التى تحدث الشعراء عنها فى هذا الموضوع هى المرأة المحبوبة وهذه غالبا ما تكون مصدر خيال خصب وأحاسيس جياشة فالمحبوبة فى الغالب ما زالت ممنوعة وكل ممنوع عن النفس مرغوب لها المحبوبة اذن هى ملكة شعر الغزل وهى ملهمة الشعراء ومحركة الأحاسيس ٠ وفن الغزل هو أكثر فنون الشعر اختصاصا بالمرأة فهو يدور حولها وبها ٠ وقد أطلق عليه الغزل والنسيب والتشبيب وكل هذه الأسماء تقع تحت نفس المضمون أو هى متقاربة جـــدا ومرتبطة أشد الارتباط بمضون واحد قال صاحب اللسان ، الغزل حديث الفتيان والفتيات واللهو مع النساء ومغازلتهن محادثتهن ومراودتهن ، والتغزل التكلف لذلك (٤٠) ٠ ونسب بالنساء ينسب نسبا ونسبيا ومنسبة شبب بهن فى الشعر وتغزل (٤١) ٠ وشبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب (٤٢) ٠

فالكلمات كلها تحمل مضمونا واحدا ٠ والشاعر يتغزل ليعبر عن عاطفة الحب للمرأة التى يعجب بها أو يحبها ٠ وهو يصور فى هذا الغزل حبه ويصف الأمة وآماله ويوجه عناية كبيرة الى وصف جمال المرأة ، فشعر الغزل يعد لونا من ألوان الوصف الا أن هذا الوصف خاص بالمرأة ووصف شعور العاشقين ٠ فهو يعنى بالأمور الحسية الى جانب عنايته بالأمور المعنوية والغزل أصدق الفنون الشعرية على الاطلاق فهو يصور العواطف ويصف الوجـــدان ٠ ولا ينظمه الشاعر رغبة فى عطاء أو مداهنة لأمير أو وزير ٠ ولأن

---

(٤٠) اللسان مادة غزل ٠
(٤١) اللسان ٢ / ٢٥٣ ٠
(٤٢) اللسان ٢ / ٤٦٣ ٠

الغزل تعبير عن النفس البشرية فهو أسمى فنون الشعر وأكثرها خلودا · ويستحب فيه مالا يستحب فى غيره ذلك أنه الفن الوحيد الذى يشترط لاجادته تصوير ضعف الرجل وربما ذلته فى سبيل المرأة التى يحبها · ولذا عاب النقاد بعض شعر عمر بن أبى ربيعة لأنه صور المرأة العربية متلهفة عليه تتمناه ولا ترى فى الحياة أمنية أغلى منه ، ممتهنة لحيائها وكرامتها وهو متكبر متباه بنفسه وبأحاديث النساء عنه من مثل قوله :

قالت لترب لها تحدثها
لنفسدن الطواف فى عمر

قومى تصدى له ليبصرنا
ثم اغمزيه يا أخت لنا فى خفر

قالت لها : قد غمزته فأبى
ثم اسبطرت تسعى على أثرى(٤٣)

وقوله :

بينما ينعتنى أبصرنى
دون قيد الميل يعدو بى الأغر

قالت الكبرى أتعرفن الفتى
قالت الوسطى نعم هذا عمر

---

(٤٣) الديوان ١٩٨ اسبطرت : أسرعت ·

قالت الصــغرى وقــد يتمتها
قد عرفناه وهل يخفى القمـــر

وذكر صاحب الأغانى أن عمر بن أبى ربيعة أنشد هذه الأبيات ابن أبى عتيق فقال له (أنت لم تنسب بها وانما نسبت بنفسك كان ينبغى أن تقول : قلت لها ، فقالت لى فوضعت خـــدى فوطئت عليه) (٤٤) ٠

قالت لجاراتها انظرى ها؟من؟لى
وتأملى من راكب الأدمـــاء

قالت : أبو الخطاب أعـرف زيه
ولباسه لا شك غير خفـــاء

قالت :وهل ؟قالت: نعم فاستبشرى
من يحب لقيـــه بلقـــاء

قالت : لقد جاءت ، اذا أمنيتى
فى غير تكلفة وغـــير عنـــاء

ماكنت أرجو أن يلم بأرضـــنا
الا تمنيتـــه كبـــير رجـاء

فاذا المنى قد قربت بلقائه : وأجاب فى سر لنا وخلاء (٤٥)

---

(٤٤) الاغانى ١ / ١١٩ دار الكتب ٠
(٤٥) الديوان : ١٢ ٠

وقد استهجن الذوق العربى الشعر الذى لا يحافظ على كرامة المرأة ويحمى كبرياءها ·

وشعر الغزل يوضح مكانة المرأة فكم من فرسان شـــجعان ضحوا بحياتهم فى سبيل وصالها ورضاها · وهذا الذوق العربى الأصيل عرف منذ الجاهلية واستمر بعد مجيء الاسلام ·

وهذه الصورة للمرأة العربية تخالف صورة المرأة فى الغرب فى العصور القديمة والوسطى قبل اتصال الغرب بالشرق عن طريق العرب فى الأندلس والحروب الصليبية (٤٦) ·

فالمرأة الغربية كانت ممتهنة وتعد اداة متعة ليس غير وهى فى رأى الرجال مليئة بوجوه النقص فليس اهلا لأن تحب حبـــا محترما يحفظ كرامتها · وبعد اتصال الغرب بالشرق فى القـرن الثانى عشر الميلادى ألف من يدعى أندريه شابلان كتابا باللاتينية سماه فن الحب العف (٤٧) · وفيه يذكر ادراكا جديدا للحب لـم يكن للادب الأوربى به عهد حتى ذلك القرن وفيه ترتفع المرأة الى مكانة لم تحظ بها من قبل ويخضع الفارس لها كما يخضع التابع للسيد صاحب الأقطاع فى تلك العهود ، فالفارس يضحى فى سبيل حبها ويبكى فى يسر حين يهدده الخطر فى حبه · ويعـــد ضعفه أمامها نبلا وسموا · والحب طاهر بل هو على رأس الفضائل فهو الذى يعلم المحب الكرم ويبعث على التمسك بالخلق الكريم ولا يصح للمرء أن يحب أكثر من امرأة واحدة ، ولا أن يحب امرأة غير كريمة الخلق ، فالطهر والحياء والصدق والتضـــحية هى دعائم الحب

---

(٤٦) الادب المقارن : ١٩٢ ·
(٤٧) نفسه ١٩١ ·

النبيل ، وهو حب يكتنفه الحرمان ويطيب للمحب فيه العذاب ، ويشق عليه الظفر بما يؤمل من غاية وهذه الصورة للمحبوبة وللحب هى المعروفة عند العرب وبطبيعة الحال فان معرفتها للغرب قد تمت عن طريق الاتصال بالعرب ·

وشعر الغزل يعكس الذوق السائد فى العصر ، كما ان صورة المرأة المحبوبة كما تبدو من خلال شعر الشعراء تعكس لنا حقيقة هذا المجتمع من حيث التحضر أو البداوة ، كما توضح رقى العقول أو انحدارها ، والحضارة والأخلاق والعادات والتقاليد فى المجتمع ·

وقد شغف العرب بالمرأة والغزل منذ القدم حتى انهم تغزلوا فى مقدمات قصائدهم ليستدعوا انصات الآذان ولو لم يكن هناك حب حقيقى يعانيه الشاعر ويكابده فاذا تأكد من انتباه الآذان انفلت الى غرضه الذى من أجله أنشد قصيدته فرحل ومدح أو هجا ··· الخ ·

وقد فطن الى ذلك ابن قتيبة فقال (وسمعت بعض أهل العلم يقول ان مقصد القصيدة انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها اذا كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما لديه نازلة المدر لانتجاعهم الكلأ وانتقالهم من ماء الى ماء وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ويستدعى به اصغاء الآذان اليه لأن النسيب لا يط بالقلوب لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل والف النساء فليس يكاد أحد من أن يكون متعلقا به بسبب

وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام ، فاذا علم انه قد استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له عقب بايجاب الحقوق ..) (٤٨) .

ويجب أن نلاحظ أن الشاعر وان لم يبدأ شعره مباشرة بالنسيب ووصف آلامه وجمال محبوبته فقد بدأه بما يتعلق بهذه المحبوبة فالدار التى وقف عليها هى دارها والدمن والآثار هى آثارها وصلتها بالمحبوبة قوية لأنها موطن الذكرى والمكان الذى عاشت فيه ردحا من الزمن فهو كصورة المحبوبة أو على الأقل يذكره بها .

وقد وافق ابن رشيق على مذهب ابن قتيبة فى افتتاح القصائد فقال (وللشعراء مذاهب فى افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما فى الطباع من حب الغزل والميل الى اللهو والنساء ، وان ذلك استدراج لما بعده) (٤٩) .

وعلل ابن الرومى بدءه قصائد الهجاء بالغزل فقال :

ألـــم تر أننى قبـــل الاهاجى
أقـــدم فى أوائلها النســـيبا

لتخـــرق فى المسامع ثم يتلو
هجائى محرقا يكوى القلوبا

كصـــاعقة أتت فى أثر غيـــث
وضحك البيض يتبعه النحيبا (٥٠)

---

(٤٨) مقدمة الشعر والشعراء . ٧ .
(٤٩) العمدة ١ / ١٥٠ .
(٥٠) الديوان ج ١ .

جاذبية المرأة والولوع بها اذن أمر يســـتدعى الانتباه ولذا فذكرها يحقق الرغبات ويستدعى انصات الآذان ولم يقصد الشعراء حين وصفوا المرأة وتغزلوا بها أن يعكسوا صورتها للعصور التالية للتعرف على شكلها وخلقها ومكانتها ولو قصدوا ذلك لضلوا أو بالغوا أو تعصبوا عليها أو لها ولكن جاء هذا الحديث طبيعيـــا صادقا فصورها طبيعية دون تكلف أو رياء ولذا عد هذا الشعر عدسة مكبرة ومسلطة على كل كبيرة وصغيرة للمرأة · وهو يعد سجل تاريخى لحياة المرأة فى مجتمع ما ·

وفى بحثنا هذا نجد أن المرأة بدت بأكثر من صورة متأثرة فى ذلك بالجنس والبيئة والمستوى الاجتماعى والثقـــافى فالمرأة العربية الحرة غير الأمة من الموالى فى الصـــورة الخارجية من حيث الشكل أو المنظر العام وكذلك فى الأخلاق والعادات والتقاليد والمرأة فى البادية غيرها فى الحضر ، والمرأة الحرة من الطبقة الوسطى أو الدنيا غير الشريفة من الطبقة الارستقراطية · وشعر جميل بثينة وكثير عزة والمجنون وقيس بن ذريح وذى الرمة وكافة الشعراء العذريين يمثل المرأة البدوية بعاداتها وتقاليدها وشـــدة محافظتها وعفتها ومنعتها وبخلها · وفى الغـــزل بالبدويات تظهر المثل العليا لأخلاق المرأة العربية فى العصر الأموى وشعر عمر بن أبى ربيعة يمثل المرأة الحرة من الطبقة الارســـتقراطية فى مدن الحجاز والشام والعراق · وكان الذوق العام فى هذا العصر يفضل المرأة الحرة ·

يقول عمر بن أبى ربيعة :

ودعت حـــــوراء آنســـة
حـرة من شأنها الخفر (٥١)

---

(٥١) الديوان عمر بن أبى ربيعة : ١٨٦ ·

ويقول ذو الرمة :

من المؤلفات الرمل أدماء حـــرة
شعاع الضحى فى متنها يتوضح (٥٢)

وعلى الرغم من أن الذوق العام فى هذا العصر كان يفضـل المرأة العربية الحرة فان بعض الشعراء قد شغف بالاماء والجوارى وخاصة المغنيات منهن وهى طبقة انتشرت فى هذا العصر انتشارا كبيرا وقد عكس الحديث عنهن تحررهن وجمالهن وأخـلاقهن التى تختلف عن أخلاق العربيات الحرائر وقد سبق أن ذكرنا أن الأحوص أهم الشعراء الذين عنوا بالجوارى المغنيات فى شعره ٠

واذا كانت الأخلاق والطبائع قد تغيرت حسب البيئة والمستوى الاجتماعى فان الذوق الرعبي فى مقاييس جمال المرأة أو شـكلها الخارجى لم يتغير فالمـــرأة المحبـــوبة الجميلة تشـــبه الطبيعـة وتمتزج بها ٠

والطبيعة والمرأة متداخلتان فى احساس الشـعراء وخيالاتهم فهما معا حقل من الألوان والسحر والغموض والروعة وفيهما معا البريق والبهرج ومخايلة الشعراء ، وبين الطبيعة والمرأة وجوه اتفاق كثيرة فالطبيعة مجلى فخم من مجال الجمال والمرأة همهـــا الجمال هو سرها وهو سلاحها الذى ذودتها به الطبيعة لفتنة الرجل ولتستمر الحياة ولعل هذا المعنى كان وراء تسمية المرأة بالنصف الحـــلو (٥٣) ٠

---

(٥٢) ديوان ذى الرمة : ٢٠ ادماء بيضاء ، المتن : الظهر ٠
(٥٣) المرأة فى شعر البحترى ٤٣ ، ٤٤ بتصرف ٠

والطبيعة حقل ألوان والمرأة ولوع بالزينة شغوف بالألوان والحلى والطيب والأصباغ وكثير مما فى عالم المرأة من هـــذه المظاهر مستمد من الطبيعة فعطرها من أريج الزهر وأثوابها من وشى الرياض ٠ وقد نفذ الشعراء بفطرتهم الملهمة الى هذه الظاهرة وترك هذا النفاذ انطباعاته فى القصيد ٠ فقد استمدوا أوصاف المرأة من الطبيعة فالخد تفاح والثغر أقاح والعيون عيون غزلان والنظرات نرجس نعسان والشفاة مرجان والقوام غصـــن بان والشعر ليل والصدر فجر وضاح والوجه صـــباح من النـــدى والنور ٠٠ الخ (٥٤) وهكذا الى آخر ما وصفت به النساء من صفات الطبيعة ٠ والشاعر ذو الرمة (٥٥) هو أكثر الشعراء ولوعا بالطبيعة وخاصة الطبيعة البدوية ولذا فقد شبه محبوبته بها ومزج بينهما أحيانا وفى أحيان أخرى فضل المحبوبة على الطبيعة يقول:

ذكرتك اذ مرت بنـا أم شـــادن
أمام المطايا تشرئب وتسنح (٥٦)

ويقول مصورا جمال محبوبته التى أشبهت الطبيعة وامتزجت بهـــا (٥٧) :

---

(٥٤) نفسه ٠

(٥٥) غيلان بن عقبة العدوى المضرى يكنى بأبى الحرث ولد ٧٧ هـ وهو أشهر شعراء الوصف فى عصر بنى أمية ويختص بوصف الطبيعة البدوية ٠

(٥٦) ديوان ذى الرمة : ١٩ ٠

(٥٧) ديوان ذى الرمة : ١٩ ٠

كانها بكـــرة ادمـــاء زينها
عتق النجار وعيش غير تزليج (٥٨)

فى ربرب مخطف الأحشاء ملتبس
منه بنا مر الحـــور المباهيج (٥٦)

كأن أعجازها والريط تعصـــبها
بين البرين وأعناق العواهيج(٦٠)

أنقـــاء سارية حلت عزاليهـا
من آخر الليل ريح غير حرجوج(٦١)

صوادى الهام والأحشاء خـــانقة
تناول الهيم أرشاف الصهاريج(٦٢)

---

(٥٨) بكرة أ من الابل ـ عتق النجار كرم الاصل والمحتد ، التزليج ، مدافعة العيش ٠

(٥٩) الربرب : القطيع من البقر وأراد به النساء ـ مخطف : ضامر ـ المباهيج : الحسان ٠

(٦٠) الريط : ثياب ـ والريط ملاءه يلف بها الجســـم ـ البرين : الخلاخيل والاساور ـ العواهيج الطوال الاعناق ٠

(٦١) أنقاء : من النقاء ـ السارية : السحابة التى تمطر ليلا غزاليها العزالى افواه المزادة ـ الحرجوج : الريح الباردة ٠

(٦٢) الصوادى والهيم : العطاش ـ أرشاف : بقايا الصهاريج الحياض ٠

ويقول جميل بثينة :

وأحسن خلق الله جيـــدا ومقلة
تشبه في النسوان بالشادن الطفل (٦٣)

ويقول أيضا :

فما ظبية أدماء لاحقة الحشـــا
بصحراء قو أفـــــردتها ظباؤها

تراعى قليلا ثم تحنو الى طـــلا
اذا ما دعته والبغـــــام دعاؤها

بأحسن منهـــا مقلة ومقلدا
اذا جليت لا يســتطاع اجتلاؤها

وتبسم عن غر عـــذب كأنه
أقاح حكته يوم دجن سماؤها (٦٤)

ويقول قيس بن الملوح مشبها حبيبته بالشـــــمس والبدر ثم مفضلها عليهما :

---

(٦٣) الاغانى ١١ / ١٧٨ ٠

(٦٤) ديوان جميل : ١٢ ، تراعى : أى ترعى مع رفيقاتها فى الحقول ـ الطلا : ولد الظبى ساعة يولد البغام : صياح الظبية الى ولدها بصوت رخـــيم ٠

أنيرى مكان البدر أن أفـــل البـــدر
وقومى مقام الشمس ما استأخر الفجر

ففيك من الشمس المضيئة ضـــوؤها
وليس لها منك التبســـم والثغـــر

بل لك نور الشـــمس والبـــدر كله
ولا حملت عينيك شمس ولا بدر (٦٥)

لك الشرقة اللألاء والبـــدر طالـــع
وليس لها منـــك الترائب والنحـــر

ومن أين للشمس المنيرة بالضـــحى
بمكحـــولة العينين فى طـــرفها فتر

وأن لهـــا من دل ليـــلى اذا انثنت
بعينى مهاة الرمل قد مســـها الذعر

وعمر بن أبى ربيعة الشـــاعر الحضرى فتن أيضا بجمال الطبيعة البدوية وشبه محبوبته بالظبى ثم فضلها عليه يقول :

يذكرنى ابنـــة التيمى ظـــبى
يروض بروضـــة ســـهل رباها
فقلت له ، وكـــان يراع قلبى
فلم أر قط كاليـــوم اشـــتباها

---

(٦٥) هكذا فى الديوان (عينيك) .

سوى حمش بساقك مستبين
وأن شواك لم يشبه شواها

وأنك عاطل عار وليس
بعارية ولا عطل يداها

وأنت غير أفرع وهى تدلى
على المثنين أسحم قد كساها

ولو قعدت ولم تكلف بود
سوى ما قد كلفت به كفاها (٦٦)

وبعد دراسة جمال المرأة فى العصر الأموى نكتشف أن الذوق العربى كان واحدا سواء فى البيئة البدوية أو الحضرية وقد عنى الشعراء بالوصف التفصيلى للمرأة فوصفوا الوجه والعيون والخدود والفم والأسنان والشفاة والبشرةوالجسد والقوام٠٠الخ٠

واستحسنوا من المرأة الوضاحة والصباحة والهيف والرشاقة وأحبوا أن تكون الرشيقة الهيفاء ضامرة الخصر ممتلئة الردفين بارزة النهدين ٠٠٠ وهو ذوق لا يخرج عن الفطرة ومما يعيب المرأة عضويا أن تكون رسحاء ضئيلة الردفين فاذا كانت صحيحة البنية وجب أن تكتسى عظام فخذيها وعجيزتها وأن يمتلىء فيها هذا الجانب من جسمها والا أشار هزاله الى آفة فى تكوين الجسم لا يوافقه حاسة الجمال ويستحسن كذلك الخصر الدقيق لأن ضخامة المعدة قد تؤذى الجنين وتضغط على الرحم وتشير الى

(٦٦) ديوان عمر بن أبى ربيعة ٠

التزيد من الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحيـــاة فى جسم الانسان (٦٧) ٠

وقد بغضوا المرأة التى لا تتصف بهذه الصفات يقول عمر بن أبى ربيعة (٦٨) :

يا قضـــاة العباد ان عليكم
فى تقى ربكم وعدل القضاء

أن تجـــيزوا وتشهدوا لنساء
وتردوا شـــهادة لنســـاء

فانظروا كل ذات بوص رداح
فأجيزوا شـــهادة العجـزاء

وارفضوا الرسح فى الشهادة رفضا
لا تجيزوا شـهادة الرسحاء

ليت للرسح قرية هن فيهـــا
ما دعا الله مســـــلم بدعـــاء

ليس فيها خلاطهن ســـواهن
بأرض بعيــــدة وخـــلاء

---

(٦٧) شاعر الغزل : ٩٤ ٠
(٦٨) الديوان : ١٣ ، ١٤ ٠

عجل الله قطهـــن ، وأبقى
كل خـــود خـــريدة قبـــاء

تعقد المرط فوق دعص من الرمل
عريض قد حف بالانقـــاء

ولحى الله كل عفـــلاء زلاء
عبوســـا قد أذنت بالبـــذاء

صرصر سلفع رضيعة غـــول
لم تزل فى شصيبة وشقاء(٦٩)

وقد كان هذا الذوق فى جمال المرأة هو ذوق الرجال والنساء جميعا • ومما يوضح ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفى ســـأل أى النساء أحمد ؟ فأجيب : التى فى بطنها غلام وفى حجرها غلام ويسعى لها مع الغلمان غلام •

قال : فأى النساء شر فقيل له : الشـــديدة الأذى الكثيرة الشكوى المخالفة لما تهوى ، فقال : فأى النساء أعجب اليك ؟ قيل :

---

(٦٩) البوص : الردف • الرواح : الردف الثقيل ـ العجزاء : وثقيلة العجز الرسح جمع رسحاء وهى المرأة التى رق ردفها فلا يبين • قباء : دقيقة الخصر ـ المرط • كساء من خزاو صوف • الدعص : كثيب من الرمل شبه به الردف •

العفلاء : المرأة التى بها ما يشبه الفتق ، الزلاء : خفيفة الوركين البذاء : فحش اللسان الصرصر : شديدة الصوت السلفع : الصـــخابة البذيئة السيئة الخلق •

الشفاء العطبول المنعاج الكسول التى لم يشنها قصر ولا طول (٦٩)
قال : فأى النساء أبغض اليك ؟ قيل : الرعينة القصيرة الباهق
الشريرة ٠

قال : فأخبرنى عن أفضل النساء مخبرا وأطيبهن أعطافا
قيل : أفضل النساء الفضة البضة التى أعلاها قضيب وأسفلها
كثيب اللعساء الورهاء التى لم تذهب طولا فى انحطاط ولم تلصق
قصرا فى أفراط الجعدة الغدائر السبطة الضفائر الضخمة المآكم
الطفلة البراجم ٠ اذا رأيت أناملها شبهتها بالمدارى ٠ واذا قامت
خلتها سارية من السوارى (٧٠) ٠

وروى صاحب الأغانى أنه كان بالمدينة امرأة حسناء تسمى
عزة الميلاء يألفها الأشراف وغيرهم من أهل المروءات وكانت من
أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء فأتاها مصـــعب بن الزبير
وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر وسعيد بن العاص فقالوا :
انا خطبنا فانظرى لنا ٠ فقالت لمصعب : يا ابن أبى عبد الله ومن
خطبت ؟ فقال : عائشة بنت طلحة ، فقالت : فأنت يا بن أبى أحيحة؟
قال : عائشة بنت عثمان ٠ قالت : فأنت يا بن الصديق ؟ قال :
أم القاسم بنت زكريا بن طلحة ٠ فذهبت الى النســـوة الثلاث
واحتالت لرؤيتهن ثم عادت الى الرجال الثلاث لتخبرهم بما رأت
فقالت : يا بن أبى عبد الله أما عائشة بنت طلحة فلا والله ما رأيت
مثلها مقبلة ومدبرة محطوطة المثنين عظيمة العجيزة ممتلئة الترائب
نقية الثغر وصفحة الوجه فرعاء الشعر لفاء الفخذين ممتلئة الصدر

---

(٧٠) يقول عمر فى المرأة التى على تلك الصفات (الديوان ١٤٤)
حوراء ممكورة الساقين بهكنة لا عيب فى خلقها قصر ولا طول
(٧١) مروج الذهب ٣ / ١٨٢ ٠

خميصة البطن ذات عكن ضخمة السرة مسرولة الساق يرتج ما بين أعلاها الى قدميها . وفيها عيبان أما احدهما فيواريه الخمار وأما الآخر فيواريه الخف عظم الأذن والقدم. ثم قالت: وأما يا بن أبي أحيحة فاني والله ما رأيت مثل خلق عائشة بنت عثمان لامرأة قط ليس فيها عيب والله لكأنما أفرغت افراغا ولكن في الوجه ردة وان استشرتني أشرت عليك بوجه تستأنس به . وأما أنت يا بن الصديق فوالله ما رأيت مثل أم القاسم كأنها خوط بانة تنثني وكأنها جدل عنان أو كأنها جان يثنى على رمل لو شئت ان تعقد أطرافها لفعلت ولكنها شختة الصدر وأنت عريض الصدر فاذا كان ذلك كان قبيحا لا والله حتى يملأ كل شيء مثله قال : فوصلها الرجال والنساء وتزوجوهن (٧٢) .

وقد عنى الشعراء بهذه الصفات وشغفوا بالمحبوبة التي تتوافر فيها هذه المقاييس ، قال عمر بن أبي ربيعة :

ممكورة ردع العبير بها
جم العظام لطيفة الخصر (٧٣)

، أبت الروادف والثدي لقمصها
مس البطون وأن تمس ظهورا (٧٤)

---

(٧٢) الاغاني ١١ / ١٧٩ محطوط المتنين ممدودتهما - الترائب موضع القلادة أو عظام الصدر فرعاء : طويلة الشعر خميصة البطن : ضامرة - الردة في الوجه امتلاء أو قبح مع شيء من الجمال . الخوط الغض الناعم وشبهتها بالحية في اللين .

(٧٣) الاغاني ١ / ٧٤ .

(٧٤) الديوان : ٢٠٨ .

وقال ذو الرمة :

غراء يجرى وشاحها اذا انصرفت
منها على أهضم الكشحين منخضد(٧٥)

ووصفوها بالطول قال ذو الرمة :

عطابيل بيض من ذؤابة عــــامر
رقاق الثنايا مشرفات الحقائب (٧٦)

والمحبوبة دائما بيضاء ناصعة البياض كالشمس أو البدر وقد عشق الشعراء اللون الأبيض لبهائه ووضاءته وربما لأنه يدل على النقاء والصفاء · يصف عمر بن أبى ربيعة وضاءة حبيبته والنور الذى يشع من جبينها فيقول :

واذا تراءت فى الظلام جلت
دجن الظـــلام كأنهـا بدر

وكأن ضوء الشمس تحت قناعها
أو مزنة أدتى بها القطـر (٧٧)

ويقول :
وهى كالشمس اذ بدت فى ضحاها
فأبانت للناظرين طلـــوعا (٧٨)

---

(٧٥) الديوان : ٢٨ ·
(٧٦) الديوان : ١٥ ـ العطابيل : البيض الطوال الحسان ·
(٧٧) الديوان ١٨٣ ·
(٧٨) الديوان ٢٤١ ·

، بيضاء مثل الشمس حين طلوعها
موسومة بالحسن تعجب من رأى (٧٩)

ويقول جميل :

من الخفرات البيض أخلص لونها
تلاحى عدوا لم يجـــد ما يعيبها

فما مزنة بين الســـماكين أومضت
من النور ثم استعرضتها جنوبها

واللون المفضل لبشرة المحبوبة هو الأبيض يضرب الى الصفرة يقول (٨٠) جرير :

يبدين من خلل الحجال ســـوالفا
بيضاء تزين بالجمال المذهب (٨١)

ويقول عمر :

غراء واضـــحة الجبين كأنها
قمـــر بـــدا للنـــــــاظرين (٨٢)

---

(٧٩) الديوان : ١٧ .
(٨٠) الديوان : ١٥ والمزنة : المطرة ، والسماكان نجمان نيران .
(٨١) الديوان : ١٨ .
(٨٢) الديوان : ١٤٦ .

فالمحبوبة عندهم بيضاء مضيئة كالشمس أو البدر أو النجوم أو القمر ·

تبدد الظلمات وسواء أتصفت المحبوبة فعــــلا بالبيـــاض والوضاءة أم كانت غير ذلك فهذا هو ذوق العربى والمقياس الأول لجمال المرأة عند العرب ·

واهتم الشعراء اهتماما كبيرا بوصف عيون المحبوبة فافتنوا فى شكلها ولونها وبريقها وجاذبيتها وسحرها · وعشقوا العيون الواسعة المكحولة خلقة بقول ذو الرمة :

كحلاء فى دعج صفراء فى نعج
كأنها فضة قد مسها ذهب (٨٣)

وشبهوا العيون بعيون الظباء وبقر الوحش يقول ذو الرمة :

وتحت العوالى والقنا مستظلة
ظباء أعارتها العيون الجآذر(٨٤)

ويقول جميل :

لها مقلة كحلاء نجــــلاء خلقة
كأنأباها الظبىأو أمها مها (٨٥)

---

(٨٣) الديوان : ١٠ الدعج : سواد العين مع سعتهما ، والنعجالبياض الخالص ·

(٨٤) الديوان : ٤١ العوالى : يريد أعالى الهوادج ، والقنـــا : عيدانها والجآذر أولاد البقر ·

(٨٥) الديوان : ١١٧ خلقة : أى بدون أن تفتعل التكحيل ·

ويقول عمر بن أبى ربيعة :

وعينى مهاة فى الخميلة مطفل
مكحلة ،تبغى مرادا لجؤذر (٨٦)

ويقول ذو الرمة :

وعين كعين الرئم فيهـــا ملاحة
هى السحر أو أدهى التباسا وأعلق (٨٧)

ويصف سحر العيون وشدة جاذبيتها وقوة أسرها فيقول :

وعينان قال الله كونا فكانتـــا
فعولان بالألباب ما تفعل الخمر (٨٨)

ونلاحظ أن ذا الرمة متأثر فى شعره بأساليب القرآن وهو دائم الاقتباس منها فالبيت الأخير فيه معنى الآية الكريمة (سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) (٨٩) ، (انما امره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (٩٠) ٠

---

(٨٦) الديوان ، ١٢٩ المهاة : البقرة الوحشية ، المطفل : التى لها ولد الجذر هو ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجال عينيه ٠
(٨٧) الديوان : ٦٥ الرئم : الظباء البيض ٠
(٨٨) الديوان : ٣٧ ٠
(٨٩) سورة مريم : ٣٥ ٠
(٩٠) سورة غافر آية ٦٨ ٠

كذلك عنوا بشكل العين وصفاء بياضها وشدة سوادها قال ذو الرمة :

أوانس وضح الجيـــاد عين
ترى منهن فى المقل احورارا (٩١)

وقال المجنون فى وصف سحر عيون المحبوبة وقوة أسرها :

لها فى طرفها لحظـــات حتف
تميت بها وتحيى من تريد (٩٢)

كذلك عنوا بوصف الخدود فوصفوها بالنعومة والنقـــاء يقول عمر :

فآخر عهد لى بهـــا أعـــرضت
ولاح لها خـد نقى ومحجر (٩٣)

وقال عمر بن ابى ربيعة :

وخد أســـيل كالوذيلة ناعم
متى يره راء يهل ويسحر (٩٤)

---

(٩١) الديوان : ٣٤ وضح الجياد : بيض الاناق ، عين : واسعات الاين والحور شدة البياض وشدة السواد ٠

(٩٢) الديوان : ١٠٣ ٠

(٩٣) الديوان : ١٢٦ ٠

(٩٤) ديوان عمر بن ابى ربيعة ؛ ص ١٢٩ ـ الوذيلة : المرآة ـ يهل : يرفع صوته بالتلبية ٠

ويقول ذو الرمة :

فيالك من خد أســـــيل ومنطق
رخيم ومن خلق تعلل جاديه(٩٥)

كما شبهوا الخدود بالورد ٠ يقول قيس بن الملوح :

ومفروشة الخدين وردا مضرجا
اذا جمشته العين عاد بنفسجا(٩٦)

وعنوا عناية كبيرة بالفم والأسنان والريق والابتسام وتحدثوا عن السواك ووصفوا طيب رائحة الفم والسواك وشبهوا رائحته بالعنبر والمسك ٠ يقول ذو الرمة :

وتجـلو بفـــرع من اراك كـأنه
من العنبر الهندى والمسك يصبح
ذرى أقحوان راحه الليل وارتقى
اليه الندى من رامة المتروح
هجان الثنايا مغربا لو تبســمت
لأخرس عنه كاد بالقول يفصح(٩٧)

---

(٩٥) ديوان ذى الرمة : ص ١٣ أسيل : سهل ـ رخيم : فيه لين ـ جاديه : عاتيه تعلل : بحث عن علة ٠

(٩٦) ديوان قيس بن الملوح : ص ٨٩ ٠

(٩٧) ديوان ذى الرمة ص ٢١ يصبح : اى صباحا ـ ذرى اقحون يعنى أسنانها فى البياض كزهر الاقحون ـ راحة : اى ظهر برد هوائه ـ هجان الثنايا مغربا اى شديدة البياض ٠

وذكروا الشفاه . يقول ذو الرمة :

لمياء فى شـــفتيها حـــوة لعس
كالشمس لما بدت أو تشبه القمر(٩٨)

وشبهوا ريقها بالخمر والشهد يقول جميل :

كأن عتيق الراح خالط ريقهـــا
وصفو غريض المزن صفق بالشهد(٩٩)

ووصفوا البشرة بالنعومة وشبهوها بالحرير يقول ذو الرمة :

لها بشر مثل الحـــــرير ومنطق
رخيم الحواشى لا هراء ولا نزر(١٠٠)

وذكر طيبها وحسن رائحتها دون أن تتطيب يقول جميل :

تأرج بالمســـك الأحم ثيابهـــا
اذا عرقت فيها وبالعنبر الورد(١٠١)

وأعجبوا بالشعر الكثيف الأسود الطويل وافتنوا فى تصوير كثافته وطوله وطريقة تمشيطه ورائحته يقول عمر بن أبى ربيعة :

---

(٩٨) ديوان ذى الرمة ص ٤٤ .

(٩٩) ديوان جميل ص ٤٣ .

(١٠٠) ديوان ذى الرمة ص ٣٧ البشرة : ظاهر الجلد ـ هراء : كثير بغير معنى ـ نذر : قليل .

(١٠١) الديوان لجميل ص ٤٨ .

سبقه بوحف فى العقـاص مرجل
أثيث كقنـــو النخلة المتكور (١٠٢)

وقال فى وصف شعر الثريا :

بفاحم مكرع ســـود غـــدائره
تثنى على المتن منه واردا جثلا (١٠٣)

ويقول ذو الرمة مصورا طول شعر المحبوبة وكثافته وشدة ســـواده :

تريك وذا غـــــــدائر واردات
يصبن عثاعث الحجبات ســود (١٠٤)

، وأسود كالأساود مســـــبكرا
عـــلى المتنين منسدلا جفالا (١٠٥)

---

(١٠٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة : ١٢٨ الوحف : الشـعر الكثير الاسود ، العقاص جمع عقيصة وهى الخصلة من الشعر تجمع فتنفتل تحت الذوائب ، مرجل : ممشط ، أثيث : كثير القنو : عذق النخلة أو شمراخها وهو مثل العنقود للكرم ، المتكور : الملتف ·

(١٠٣) نفسه : ٣١٥ مكرع : مطيب ، الوارد الشعر الطويل المسترسل الجثل : الكثير الملتف ·

(١٠٤) ديوان ذى الرمة : ٣٩ الحجبـــات : رؤوس الاوراك ـ العثاعث : لينها وأصها الارض بها شىء ن الرمل ·

(١٠٥) نفسه ص ٦٩ أسحم : أسود ، الاساود الحيات السود شبه بها خصلات الشعر ـ المسبكر المتد المعتدل لسترسل ، الجفال : الكثير·

وفضلوا العنق الطويل لأنه يبرز جمال الوجه وجمال الجسم معا يقول عمر بن أبى ربيعة :

بعيدة مهوى القرط أما لنـــوفل
أبوها وأما عبد شمس وهاشـم(١٠٦)

ويقول ذو الرمة :

ترى قرطها فى واضح الليت مشرفا
على هلك فى نفنف يتطـــوح (١٠٧)

وفضلوها تميل الى البدانة وكنوا عن ذلك بعـدم تحـرك الخلخال فى ساقها والسوار فى ذراعها يقول جميل :

خدل مخلخلها وعـــث مؤزرها
هيفاء لم يغذهـا بؤس ولاوبد (١٠٨)

ويقول ذى الرمة مصورا غلاظة السوق :
خدالا قذفن السور منهن والبرى
على ناعم البردى بل هن أخدل(١٠٩)

---

(١٠٦) ديوان عمر بن أبى ربيعة : ٣٤٨ كناية عن طول العنق وأصالة النسب .

(١٠٧) الديوان : ٢١ واضح : ابيض ، الليت : العنق ، مشرفا : مرتفعا ، النفنف : ما بين اذنيها وجيدها .

(١٠٨) الديوان لجميل ص ٤١ .

(١٠٩) الديوان لذى الرمة : ص ٧٥ والخدال : العراض السوق الغلاظ ، والبرى : الاسورة والخلاخيل وأخدل : أغلظ .

وذكروا بدانتها فقال جميل :

رجراجة رخصة الأطراف ناعمة
تكاد من بدنها فى البيت تنخضد(١١٠)

وكنوا عن بدانتها بقصر الخطوة وانبهار النفس والتعب ن القيام أو المشى القليل يقول ذو الرمة :

قصار الخطى يمشـين هونا كأنه
دبيب القطابل هن فى الوقت أوجـل

اذا نهضت أعجازها حرجت بها
بمنبهـرات غـيران لا تخـزل

ولا عيب فيها غير أو سريعها
قطوف وأن لا شىء منهن أكسل (١١)

وهكذا نجد أن الشعراء افتتنوا بوصف كل دقيق وعظيم من أمرها فوصفوا الوجه بكل ما فيه والشعر والعنق والجيد والصدر والأطراف ·

ولم يعن الشعراء بالجمال المادى للمرأة فقط وانما عنـوا بوصف الجمال المعنوى المتمثل فى سحر المحبوبة فى كل حركة وكل

---

(١١٠) ديوان جميل : ص ٤٠ ·

(١١) ديوان ذى الرمة ص ٧٥ هونا : على رقق ـ والوعث : الرمل اللين تدخل فيه رجل الماشى ، تخذل تنقطع ·

سكنة من حركاتها وسكناتها من ابتسام الى حديث الى مشية الى نظرة الى لفته الى همسة ... الخ .

وقد ربط الشعراء بين الحديث عن الفم والأسنان والشفاه وبين سحر الابتسام والحديث يقول ذو الرمة :

تداويت من مى بتكليمـــة لهـا
فما زاد الا ضعف دائى كـلامها

كأن على فيهـــا تلألوء مـــزنة
وميضا اذا زان الحديث ابتسامها (١١٢)

يقطع موضوع الحديث ابتسامها
تقطع ماء المزن فى نزف الخمر (١١٣)

وقال جميل :

لتكليم يوم مـــن بثينة واحـــد
ألذمن الدنيـــا لدى وأملـــح (١١٤)

وشبهوا حديث المحبوبة بجنى النحل والشهد والعنب يقول ذو الرمة :

---

(١١٢) ديوان ذى الرمة : ٩٨ .
(١١٣) نفسه : ٤٥ .
(١١٤) ديوان جميل : ٢١ .

ونلنا سقاطا من حديث كأنه
جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع(١١٥)

و قال جران العود فى وصف سحر حديث محبوبته :

ينازعننا لذا رخيمـــا كـــأنه
عوائر من قطـــر حداهن صـــيف

رقيق الحواشى لو تسـمع راهب
ببطنان قولا مثـــله يرجف (١١٦)

ويقول الفرزدق :

اذا هن ساقطن الحديث كأنه
جنى النحل أو أبكار كرم يقطف(١١٧)

كذلك عنوا بوصف صوت المحبوبة ورخامته يقول ذو الرمة:

رخيمات الكـــلام مبطنـــات
جواعل فى البرى قصـــبا خدالا

وشبهوا صوتها وما فيه من رخامة وحنان بصوت البقـــرة

(١١٥) ديوان ذى الرمة : ٥٩ سقاطا شىء بعد شىء ـ جنى النحل : العسل ـ الوقائع : أماكن صلبة لتمسك الماء .
(١١٦) ديوان جران العود : ٢١ .
(١١٧) ديوان الفرزدق ٢ /٥٥٢ .

الوحشية تنادى وليدها وهذا الصوت هو ما يطلق عليه البغام يقول عمر بن أبى ربيعة :

ترجع الصوت بالبغام الى جـو
ف تناغى به الشـعاب الرغابا (١١٧)

كذلك كانت المرأة المقتصدة فى كلامها والتى لا تشترك فى خنا الحديث غير الثرثارة هى المفضلة يقول قيس بن الملوح :

خود ان كثر الكلام تعـــوذت
يحمى الحياء وان تكلم تقصـــد(١١٨)

فدتك من النســوان كل شريرة
صخوب كثير فحشها وبذاؤها (١١٩)

فالمرأة الغريرة غير المجربة هى المفضلة يقول جميل :

غرائر لم يعرفن بؤس معيشـــة
يجن بها النـــاظر المتـــأنق

فلولا احتيالى ضـقن ذرعا بزائر
به من صباباتاليهن أولق (١٢٠)

---

(١١٧) ديوان عمر ص ٢٤ .

(١١٨) ديوان قيس بن الملوح ص ١١٧ والخود الفتاة الشابة الحسناء تقصد : تتوسط ولم تتجاوز الحد .

(١١٩) الاغانى ١ / ١٠٣ .

(١٢٠) ديوان جميل : ٧١ أولق : جنون .

وهى شديدة الجاذبية يقول ذو الرمة :

هى السحر الا أن للسـحر رقية
وانى لا ألفى لما بى راقيا (١٢١)

ويقول :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضـت
لعينيه مى سافرا كاد يبرق (١٢٢)

ومما سبق يتضح أن الجمال المادى للمـرأة لم يختلف فى البيئة الحضرية عنه فى بيئة البادية وربما رجع ذلك الى ان بيئة الحضر مازالت قريبة العهد بالبداوة فالذوق المفضل هو الذوق البدوى ولكن هناك سؤال لابد أن نطرحه وهو هل اتصفت كـل المحبوبات فى العصر الأموى بهذه الصفات ؟ فلم يعشق الشعراء سوى المرأة البيضاء الناصعة الطويلة ضامرة الخصر طاوية الحشا عظيمة العجز التى تميل الى البدانة أقول ان هذه الصفات توفرت وان بعض المحبوبات ربما خلت من بعض هذه الصفات ولكن الشاعر المحب كان يمدح محبوبته ويصفها بالمثال أو المثل الأعلى للجمال الذى يمثل الذوق العام فى ذلك العصر .

وقد يترك الشاعر وجوه النقص فى المحبـوبة ويلجأ الى الصفات الجميلة فيها فمثلا لم يتعرض شاعر لذكر كبر قدم عائشة

---

(١٢١) الديوان : ١٠٣ .
(١٢٢) الديوان : ٦٤ .

بنت طلحة لأن العرب فضلوا القدم الصغيرة وانما وصف بياضها وبهاءها وشدة أسرها :

وقد يرى المحب محبوبته كاملة الصفات ويراها غيره معيبة فالمحب يرى حبيبته بقلبه قبل أن يراها بعينيه ويتعشق روحها كما يتعشق جمالها المادى . ذكر مجنون ليلى وصف الوشاة لليلى ورده عليهم فقال :

يقول لى الواشون ليلى قصـيرة
فليت ذراعا عرض ليلى وطـولها

وأن بعينيها لعمرك شهلة (١٢٣)
فقلت كرام الطير شـهل عيونها

وجاحظة فوهـاء ، لا بأس انها
منى كبدى بل كل نفسى وسولها(١٢٥)

فدق صلاب الصخر راسك سرمدا
فانى الى حين الممات خليلهـا (١٢٦)

أما أخلاق المرأة العربية فى العصر الأموى فوسمت بميسـم المحافظة والعفة ونجد أن هذا الشعور يلازمنا حتى فى أكثر شعر عمر

---

(١٢٣) شهلة : ان تشوب الزرقة سواد العين .
(١٢٤) فوهاء واسعة الفم .
(١٢٥) السول : مخفف السؤل وهو ما يسأل .
(١٢٦) الديوان : ٢٨٨ .

ابن أبى ربية الذى فاض بمعاشرته للمتبرجات من النساء ؛ فنراه يحمد الخفر والحياء فى المرأة كما يحمدها العربى البدوى ٠ وقد أكثر من ذكره فى شعره يقول :

غراء فى غرة الشباب من الحـــو
ر اللواتى يزينها خفــر (١٢٧)

، وحسانا جـــواريا خفـــرات
حافظات عند الهوى الاحسابا (١٢٨)

، وتولى نواعـــم خفـــرات
يتهادين كالظباء السوارى (١٢٩)

، وبنفس ذوات خلـــق عمـيم
هى أهل البها وأهل الحياء (١٣٠)

، قد فزن بالحسن والجمال معا
وفزن رسلا بالدل والخفر (١٣١)

، فلطمت وجهها واستنبهت معها
بيضاء آنسة من شأنها الخفر (١٣٢)

---

(١٢٧) الديوان : ١٦٦ ٠
(١٢٨) الديوان : ٤٠ ٠
(١٢٩) الديوان : ١٥٨ ٠
(١٣٠) الديوان : ١٤ ٠
(١٣١) الديوان : ١٦٨ ٠
(١٣٢) الديوان : ١٣٧ ٠

وكانت المرأة الممتعة العسيرة المنال هى بغية الرجال ومنتهى آمالهم يسعون اليها ويطلبون ودها . يقول المجنون :

أقول هى الشـــمس ضـــوءها
قريب ولكن فى تناولها بعد(١٣٣)

ويقول أيضا :

فبت وباتت لم نهـــم بريبـــة
ولم نجترح يا صاح والله محرما

منعمة تسبى الحليم بوجههـــا
تزين منها عفـــة وتكرما .(١٣٤)

ويقول جميل :

وكان التفرق عنـــد الصـــباح
عن مثـــل رائحة العنـــبر

خليلان لم يقـــربا ريبـــة
ولم يستخفا الى منكر (١٣٥)

---

(١٣٣) ديوان قيس بن الملوح : ٩٧ .
(١٣٤) الديوان : ٢٦٠ .
(١٣٥) الديوان : ٥٥ .

ويقول فى وصف عفة محبوبته :

ألا انها ليست تجود لذى الهوى
بل البخل منها شيمة والخلائق (١٣٦)

ويقول :

وانى لأرضى من بثينـــة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابـــله

بلا وبألا أســـتطيع وبالمـــنى
وبالوعد حتى يســأم الوعد آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتقى واوائله (١٣٧)

ومن يطلع على دواوين الشعراء العذريين يلمس مدى عفة المرأة وشدة حيائها وشغف الذوق العربى بهذه الصفات فى المرأة فالرجل يبغض المرأة الجريئة المتهالكة . وقد مر بنا كيف عيب بعض شعر عمر بن أبى لأنه يصور النساء متهالكات عليه بلا حياء ولا عفة ولا كرامة .

ومن مظاهر عفة المرأة بخلها وتمنعها والشاعر يذم محبوبته

---

(١٣٦) الديوان : ٧٧ .
(١٣٧) ديوان جميل ص ٩٤ .

لبخلها والحقيقة أنه مدح عن طريق الذم أو هو ذم يشبه المدح ·
يقول جرير :

علقت جنية ضـــــنت بنـــائلها
من نسوة زانهن الدل والخفر (١٣٨)

ويقول :

أو انس لم يعشن بعيش سوء
يجــــددن المــــواعد والمطـالا

فقــــد افنين عمــــرك كل يوم
بوعد ما جزين به قبالا (١٣٩)

ويقول كثير غرة :

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت
من الصم لو تمشى بها العصم زلت

صفوحا فما تلقــاك الا بخيــــلة
فمن ملمنها ذلكالوصل ملت(١٤٠)

ويقول عمر بن أبى ربيعة مصورا بخل محبوبته وعدم وفائها
بالوعــــد :

---

(١٣٨) ديوان جرير ٢٨٣ ·
(١٣٩) نفسه ص ٤٢١ ·
(١٤٠) الاغانى ٩ / ٢٧ صفوحا : معرضة ·

من لقلب عنـــد الرباب عمـــيد
غير ما مفتـــدى ولا مـــــردود

قريبة بالوعـــد حتى اذا مـــا
تبلتـــه لم توف بالموعـــود

آنس دلهـــا قـــريب فمن
يسـمع يقل مانوالها بعيـد

والذى يعلم المواعيد قد يعـــ
ـلم منها أن لن تنيل بجود(١٤١)

ويقول :

أبت البخيـــلة أن تنولـــنى
فأظـن أنى زائر رمسى (١٤٢)

، وقد كنت أرجو أن تجود بنائل
فألفيتها بالبذل لا تتطوع (١٤٣)

ويقول جرير :

واذا وعـــدتك نائلا أخلفتـــه
وجعلن ذلك مثل برق الخلب(١٤٤)

---

(١٤١) ديوان عمر بن أبى ربيعة ١٠٧ ، ١٠٨ .
(١٤٢) نفسه ص ٢١٤ .
(١٤٣) نفسه : ٢٣٧ .
(١٤٤) ديوان جرير : ١٨٦ .

ويرى جميل أن البخل طبع أصيل فى حبيبته وليس تطبعا فهى مفطورة عليه :

الا انها ليست تجود لذى هوى
بل البخل منها شيمة والخلائق(١٤٥)

ومع ذلك فالعاشق يمنى نفسه بأن تفى يوما بوعدها :

فما ذكر الخلان الا ذكرتها
ولا البخل الا قلت سوف تجود

اذا فكرت قالت : قد أدركت وده
وما ضرنى بخلى فكيف أجود(١٤٥)

وقد افتن الشعراء فى وصف اخلاف الوعد وتشبيهه بصور حية ومألوفة يعرفونها فشبهوه ببرق سحابة لم تمطر يقول جميل :

ما أنت والوعد الذى تعدينني
الا كبرق سحابة لم تمطر (١٤٦)

كما شبهوه بالدين الذى لا يريد آخذه رده الى صاحبه يقول المجنون فى مماطلة المحبوب وعدم وفائه بالوعد :

يا للرجال لهم بات يعروني
مستطرف وقديم كاد يبليني

---

(١٤٥) ديوان جميل : ٣٣
(١٤٦) ديوان جميل : ٤٧

من عاذرى من غـــريم ذى عسر
يأبى فيمطلنى دينى ويلويـــــنى

لا يبعد النقد من حقى فينكـــره
ولا يحدثنى أن سوف يقضينى(١٤٧)

وعلى الرغم من عدم الوفاء والبخل فالعاشق لا يكره محبوبته ولا يسلاها يقول ذو الرمة :

أولئك لا يوفين شيئا وعـــــدنه
وعنهن لا يصحو الغوى المعذل (١٤٨)

ومن طبائع المرأة فى العصر الأمـــوى القلق وتوجس الشر والتقلب والغدر يقول المجنون :

وتحسب ليلى أننى اذ هجـــرتها
حذار الأعادى أن ما بى هونها

ولكن ليـــلى لا تفى بأمـــانة
فتحسب ليلى أننى ساخونها(١٤٩)

ويقول عمر بن أبى ربيعة مصوراً غدر محبوبته وتقلبها :

---

(١٤٧) دوان مجنون ليلى قيس بن الملوح : ٢٧٩ ، الاغانى ٢٨/٢ .
(١٤٨) ديوان ذى الرمة : ٧٥ .
(١٤٩) ديوان قيس بن الملوح : ٢٦٩ .

أسكين ما ماء الفـــرات وطيبه
منى على ظمـــأ وفقـــد شراب

بألذ منك وان نأيت وقلمـا
ترعى النساء أمانة الغياب (١٥٠)

ويقول المجنون مصورا تقلب ليلى :

ومنيتى حتى اذا مـــــا رأيتنى
على شرف للناظـــــرين يريـــب

صددت وأشمت العدو بصر منا
أثابك ياليل الجزاء مثيب (١٥١)

والنساء كارهات للمشيب يقول عمر بن أبى ربيعة :

صرمت حبلك البغوم وصــــــدت
عنــــك فى ريبة أســـــماء

والغــوانى اذا رأينك كهــلا
كان فيهن عن هواك التواء (١٥٢)

وقد عنى هذا الشعر بوصف ملابس المحبوبة وحليها وطيبها وذكر حجابها ونقابها يقول عمر .

---

(١٥٠) الاغانى ١ / ٦٤ .
(١٥١) الاغانى ٢ / ٦٤
(١٥٢) الاغانى ١ / ١٩٤ .

قـــد تنقبن بالحـــــرير وأبديـ
ـن عيونا حور المدامع نجلا(١٥٣)

وأكثر النساء كن محجبات أما السافرات فهن قليلات من اللائى يعشن فى الحضر فى مدن الحجاز والشام والعراق وغالبا ما يمثلن الطبقة المترفة ٠

كذلك عنى الشعراء بوصف طيبها وأنواعه وقـــد اختلف الحضر عن البدو فى ألوان الحلى الطيب وقد مر بنـــا أن حلى البدوية كان من الأشياء البسيطة الموجودة فى الطبيعة أما الحضرية فطيبها من الماس واللآلىء والذهب وسنرى ذلك فى غزل بن أبى ربيعة فى الحضريات ٠

كذلك عنى الشعراء بالحديث عن خضاب المرأة قال قيس ابن الملوح :

فلم أر ليـــلى موقف ســـاعة
بخيف منى ترمى جمار المحصب

ويبدى الحصا منها اذا قذفت به
من البرد أطراف البنان المخصب(١٥٤)

وقد عنيت البدوية والحضرية بالخضاب وكثر فى شعر عمر ابن أبى ربيعة ذكر أطراف البنان المخضبة يقول :

---

(١٥٣) الديوان : ٣٤ ٠
(١٥٤) الاغانى ٢ / ٢٠ ٠

بت فى نعمة وبات وســـــادى
ثنى كف حديثة بخضاب (١٥٥)

وهكذا وصف الشعراء كل ما يتعلق بالمرأة سواء الحضرية أو البدوية · واصبحت صورتها واضحة جلية للعصور التالية وفى نفس الوقت مثل هذا الشعر الذوق العربى ، كانت هذه هى الصورة العامة للمرأة فى العصر الأموى كما بدت فى شـــعر الشعراء ·

ثالثا : المرأة فى شعر عمر بن أبى ربيعة :

والى جانب هذه الصورة بدتصورة خاصةمتميزة للمرأة فىشعر عمر بن أبى ربيعة تلك صورة المرأة المترفة الحضرية أو لنقل صورة المرأة الارستقراطية من الحرائر · كانت الخلقة هى الخلقة والخلق المستحب هو نفس الخلق فى أغلب الأحيان · ولكن اختلاف البيئة والمستوى الاجتماعى جعل صورة المرأة فى شعر عمر بن أبى ربيعة فريدة متميزة · صورة مغايرة لصورة النساء فى هذا العصر ومن أهم العوامل التى ساعدت على ابراز تلك الصورة ظروف الشاعر الخاصة فقد كان والد عمر تاجرا موسرا وعامــلا للنبى صلى الله عليه وسلم ولخلفائه الراشدين وقد أورثه ثروة ضخمة وكانت أمه مجد من سبى حضرموت وكانت شديدة التعلق به كما كان محبا لها لا يفارق مجلسها ولا مجلس رفيقاتها من النساء · وكن لا يتحرجن منه ويتحدثن أمامه فى أدق شئونهن فاهله ذلك للتعرف على طبائع النساء وحقيقة مشاعرهن واحاسيسهن ومـــا

---

(١٥٥) ديوان عمر بن أبى ربيعة : ٢٥ ثنى كف : أى انثناؤها اذا انطوت ·

يسعدهن وما ينفرن منه بل انه أصبح على علم كبير بأسـلوب حديثهن وطريقة حوارهن . وقد كان عمر جميل الطلعة مطبوعا على فن الغزل وكانت بيئة الحجاز المترفة مولعة بهذا الفن مفتونة بالغناء فيه فكان هذا سببا لاتصال نسـاء هـذه الطبقة بعمر واعجابهن بفنه وبظرفه وأدى التعارف والاختلاط أن يصورهن فى شعره ويرسمهن تارة من الحقيقة وأخرى من الخيال . وفى النهاية وصلت الينا تلك الصور تعكس لنا شكل نساء هـذه الطبقة من الخارج فى المظهر والجمال والجاذبية والفتنة والحلى وطـرق الزينة وصنوف الترف ومظاهر الحرية .

وكذلك صور شكل المرأة من الداخل فاظهر أخلاقها وعاداتها ومعتقداتها وطبائعها . وهكذا اطلق على عمر بن أبى ربيعة المصور الحقيقى لهذه الطبقة .

وعمر لم يختص بتصوير المرأة الحجازية المترفة فقط بل ركز عدسته على كل من وقعت عينيه عليها من النساء بشرط أن تكون من الشريفات الحرائر ذوات الاحساب والأنساب من اللائى تبدو عليهن مظاهر النعمة ورفاهية العيش فلم تلفت نظره المرأة الجميلة الفقيرة بسيطة المظهر وانما كان أول ما يلفت نظره الى المرأة مظاهر الثراء والنعمة ثم يتتبعها ليستقصى مظهرها ومخبرها .

كان عمر ينتظر مواسم الحج والعمـرة ليلقى الحسـان القادمات من العراق والشام واليمن فالنـاس يأتون الى مكة للتخلص من ذنوبهم وطلب غفران الله ورحمته وهو تزيد ذنوبه فى هذه المواسم يقول :

تروح يرجـــو أن تحط ذنـــوبه
فآب وقد زادت عليه ذنوب(١٥٦)

ويقول :

يقصد الناس للطواف احتســابا
وذنوبى مجموعة فى الطواف(١٥٧)

ويقول مصورا مشاعره فى موسم الحج :

فلم أر كالتجمير منظر ناظـــر
ولا كليالى الحج أفلتن ذا هوى(١٥٨)

ويقول :

صاد قلبى اليـــوم ظبى مقبـــل من عـــرفات
فى ظبـــاء تتهادى عـــامدا للجمـــرات
وعليه الخـز والقـز ووشى الحبرات (١٥٩)

وكان عمر يتصور أن النساء الحاجات يأتين الى الحج من أجل رؤيته يقول مترجما ما تقوله عينى المرأة ومصورا شعورها نحـــوه :

---

(١٥٦) الديوان : ٣٣ ·

(١٥٧) عيون الاخبار ٤ / ١٠٧ ·

(١٥٨) الديوان : ١٨ ·

(١٥٩) الديوان : ٧٥ الحبرة بكسر الحاء والحبرة بفتحها : ضرب من برود اليمن منمر والجمع حبرات وحبر ·

أومت بعينيها من الهـــودج
لولاك فى ذا العام لم أحجج

أنت الى مـــكة أخرجتـــنى
ولو تركت الحج لم أخرج (١٦٠)

ويقول وقد رأى عائشة بن طلحة تسير على بغلة فاستوقفها وأنشدها فانكرت عليه ما نسب اليها ثم أطلقت عنان بغلتها وسارت ولم تزل تداريه خوفاً من أن يتعرض لها حتى قضت حجها وانصرفت الى المدينة :

يا ربة البغلة الشهباء ، هل لكم
أن ترحمي عمرا لا ترهقى حرجا

قالت: بدائك مت أو عش تعالجه

فما نرى لك فيما عندنا فرجـا

قد كنت حملتنى غيظا أعالجه
فان تقدنى ، فقد عنيتنى حججا

حتى لو اسطيع مما قد فعلت بنا
أكلت لحمك من غيظى وما نضجا

---

(١٦٠) الديوان ٠ ٨٠ ٠

فقلت : لا والذى حج الحجيج له
ما مح حبك من قلبى ولا نهجا(١٦١)

وهو يتمنى ألا ينتهى موسم الحج والعمرة يقول :

ليت ذا الحج كان حتما علينـــا
كل شهرين حجة واعتمارا(١٦٢)

وكما ذكرت من قبل لم يكن عمر يتعرض لأى امرأة جميلة ولكنه كان مختصا بالمرأة المترفة يقول د٠ طه حسين (المؤرخ الذى يريد أن يدرس حياة المرأة العربية المترفة فى القرن الأول يجب أن يلتمس هذه الحياة فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، فلن يظفر فى مصدر آخر من مصادر الأدب والتاريخ بمثل ما يظفر به فى هذا الشعر ، فيه ترى المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة تنفق حياتها فى هـــذه الدعة والنعيم اللتين على عفتهما وطهارتهما لا تخلوان من لهو ودعابة ولا من عبث وفكاهة والمؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء فى هـــذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة (١٦٣) ٠

وأهم النساء فى شعر عمر بن أبى ربيعة الثريا (١٦٤) وهى بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر من عبد شمس وكان لها من المال والرياض والدور حظ موفور وكانت من الفتيات

---

(١٦١) الديوان : ٨١ تقدنى تعطنى القود أى القصاص فتجعلنى أقتص منك عنيتنى : أدخلت على العناء ، مح : بلى ، نهج : بلى ٠
(١٦٢) الديوان : ١٧٦ ٠
(١٦٣) حديث الاربعاء : ١ / ٩٧ ٠
(١٦٤) الاغانى ١ / ٢١٣ ، ١ / ٢٢٨

البارزات فى مكة حسبا ونسبا وتزوجها سهيل بن عبد العزيز بن مروان وكانت وهى فى مكة تعجب بفن الغناء · ولعـــل ذلك ما جعلها تتصل بعمر وبرزت اليه على سنة الشريفات فى عصرها ونظم فيها كثيرا من غزله وبادلته ودا بود (١٦٥) ·

والسيدة الثانية فى ديوانه هى زينب الجمحية ولم تكن من أهل مكة وانما كانت من أهل المدينة حجت مع أخيها قدامة فأعجب بها عمر (١٦٦) · وقد تكون هى الجمحية التى تزوج بها (فكل من يقرن أشعار عمر بعضها الى بعض يستطيع أن يعرف أن زينب هى نفسها هند وهى نعم وهى ذات الخال ، ولم يحاول الرواة أن يتبينوا شيئا من ذلك وانما حاولوا أن يقصوا عن عمر والأسماء الموجودة فى ديوانه قصصا كثيرة للتسلية ولم يتنبهوا الى أن بعض هذه الأسماء قـــد يكون حقيقيا وأن بعضـــها قد يكون رمزيا) (١٦٧) ·

ومن النساء اللائى ذكرهن عمر فى شعره بكثرة عائشة بنت طلحة وهى حفيدة أبى بكر الصـــديق من ناحيـــة أمها وهى من الشخصيات البارزة فى مجتمع العصر الأموى ولها شهرة واسعة فى الترف والعبث بالمال · وكان حديث عمر عنها دائما مرتبطا بموسم الحج وقد صور جمالها ومكانتها وثراءها ومظاهر النعمة البادية عليها كما تحدث عمر عن السيدة سكينة بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان لهما فى النسب والثراء مكان لا يعلوه فى زمانهما مكان · ويلحق بهما من قريب أو بعيد

---

(١٦٥) التطور والتجديد فى الشعر الاموى ٢٤ ، شاعر الغزل : ٢٥·
(١٦٦) الاغانى ١ / ٩٨ ·
(١٦٧) التطور والتجديد : ٢٢٤ ·

حسان أخريات من كبار البيوتات منهن من ذكرها باسمها أو أشار الى وصف النعمة والبذخ المحيطة بها ومنهن من لم يصرح عنهن بالكنى والأسماء ٠

واستعان عمر فى رسمه لصورة المرأة المترفة من الطبقة الارستقراطية فى عصره بأدوات أهمها الألفاظ السهلة والمعانى القريبة والأوزان القصيرة والتشبيهات الحديثة المشتقة من الحضارة الجديدة ونجد أنه فى الكثير من لوحاته للمرأة يصف البيئة الدينية أو يشير الى بعض شعائر الحج والعمرة فنشعر بوجود المرأة فى هذا المكان المقدس ٠

ومن تشبيهاته الحضرية تشبيهه للمرأة بالدمية وهى الصورة الجميلة النقش والتلوين ويمزج أحيانا بين هذه الصورة الحضرية والتشبيهات البدوية فيقول :

خرجت تأطر فى ثلاث كالدمى
تمشى كمشية الظبية الأدماء(١٦٨)

ويقول مشبها محبوبتهوصويحباتها بالتماثيلالمغطاة بالذهب:

قالت ثريا لأتراب لها قطف
قمن نحى أبا الخطاب من كثب

فطرن حبا لما قالت ، وشايعها
مثل التماثيل قدموهن بالذهب(١٦٩)

---

(١٦٨) الديوان : ١٣ ٠
(١٦٩) الديوان : ٥٦ ٠

ومحبوبته منعمة مخدومة مترفة ذات حسب ونسب لم تعمل برعى الأغنام يقول :

وحســـانا جواريا خفـــرات
حافظات عند الهوى الأحســابا

لا يكثرن فى الحـــديث ولايتـ
ـبعن ينعقن بالبهام الظرابا(١٧٠)

وهو يعنى بوصف ملابسها وحليها التى تنم عن ثرائها كما يصور تصرفاتها التى تدل على حرية وجراة غير مالوفة فى المرأة العربية المحافظة يقول :

قالت ثريا لأتراب لهـــا قطـــف
قمن نحى أبا الخطـاب عن كثب

فطرن حبا لما قالت وشــــايعها
مثل التماثيل قـد موهن بالذهب

يرفلن فى مطرفات السوس آونة
وفى العتيق من الديباج والقصب

ترى عليهن حلى الدر متســـقا
مع الزبرجد والياقوت كالشهب(١٧١)

---

(١٧٠) الديوان : ٤ .

(١٧١) الديوان : ٥٦ قطف : قصيرة الخطو - مطرفات جمع مطرف وهو رداء من خز مربع ذو أعلام - السوس : كورة بالاهواز العتيق : الخيار من كل شيء .

ومن مظاهر النعمة والترف كونها مخدومة الكسل وعـــدم الاستيقاظ مبكرا · ودائما نجد الشـــاعر يكنى عن ترف محبوبته بأنها نؤوم الضحى يقول :

ربعـــة أو فويق ذلك قليـــلا
ونؤوم الضحى وحق كسول(١٧٢)

، من البيض مكسال الضحى بخترية
ثقال متى تنهض الى الشىء تفتر(١٧٣)

وهى مزهوة بجمالها حريصة على أن تشهد أثره فى العيون:

غراء يعشى الناظرين بياضـــها
حوراء فى غلواء عيش معجب (١٧٤)

وهى لم تجرب حياة البؤس :

عقـــائل لم يعشـــن بعيش بؤس
ولـكن بالغضـــارة والنعيم (١٧٥)

، نواعم لم يدرين ما عيش شقوة
ولا هن نمات الحـديث زعانف (١٧٦)

---

(١٧٢) الديوان : ٢٩٧ ·

(١٧٣) الديوان : ١٢٩ · بخترية بالخاء المعجمة وهى التى تمشى متمايلة معجبة بنفسها من البخترة ـ ثقال : ثقيلة الردفين ·

(١٧٤) الديوان : ٥٠ ·

(١٧٥) الديوان : ٣٦١ ·

(١٧٦) الديوان : ٢٥٤ زعانف : جمع زعنفة وهو الرذل والرذلة ·

ويصف لين حياتها وشدة تنعمها فيقول :

لو دب ذر رويدا فوق قرقـــرها
لأثر الذر فوق التراب فى البشر(١٧٧)

لو دب ذر فوق ضاحى جـلدها
لأبـــان من آثارهن حـــــدور (١٧٨)

وهى مخدومة مدللة نجد من يبعد عنها ما يكدر صفوها تطلب من جواريها أن يأخذن الظل منها يقول :

ولقـــــد قالت لأتراب لهـــا
كالها يلعـــــبن فى حجـــــرتها

خذن عنى الظـــل لا يتبعننى
ومضت تسعى الى قبتها (١٧٩)

وهو يكنى عن ثرائها وعن أنها مخدومة بنعومة الأيدى وصفاء لون البشرة وشدة بياضها يقول :

ومد عليها السـجف يوم لقيتها
على عجل تباعها والخـــــوادم

---

(١٧٧) الديوان : ١٣٩؛ القرقر : لباس المرأة : البشر : البشرة .
(١٧٨) الديوان ١٤٦ .
(١٧٩) الديوان : ٧٥ .

فلم استطيعها غير أن قد بدا لنا
عشية راحت كفها والمعاصـــــم

معاصم لم تضرب على البهم بالضحى
عصاها ووجه لم تلحه السمائم

نضير ترى فيه أسـاريع مائه
صبيح تفاديه الأكف النواعم(١٨٠)

ولكن يجب أن نلاحظ أن الترف الذى وصفه عمر كان ترفا عليه مسحة من بداوة وتبدو دلالته فى الدلال الخشن كما تبدو فى اظهار النعمة بالمكاثرة والمباهاة التى يعوزها الصقل والطلاء ٠ فمن الدلال الخشن أن تترفع عائشة بنت طلحـــة عن ثمانى لآلىء بعشرين ألف دينار ٠ وقد كانت الثريا تلبس الخواتم كسائر بنات عصرها فى جميع أصابعها وأنها لطمت بيدها وجه عمر بن أبى ربيعة فأوشكت أن تخلع ثنيته (١٨١) ٠

وعلى هذا فالترف المذكور فى شعر عمر هـــو ترف خاص بالبيئة الحضرية الأموية القريبة العهد بالبدواة ويوضح ذلك د٠ طه حسين فيقول عن مزايا الغزل الأموى الحضرى (أنه لم يخلص من السذاجة البدوية ولم يبرأ من تأثير الحضارة الجديدة ، ففيه من البداوة سذاجة تستخفك وتستصبيك وفيه من الحضارة طلاء يبعث فى نفسك الميل الى الاستقصاء والاستطلاع ٠ وأنت تجد بعد هذا عذوبة ولذة فى هذا المزاج الذى يتألف منه الغزل الأموى والذى

(١٨٠) الديوان : ٣٤٨ ، ٣٤٩ ٠
(١٨١) شاعر الغزل : ٢٦ ٠

يمثل لك هذا الشعب العـــربى البادى وقد أخـــذ يتحضر ويترف ويحس كما يحس الحاضرون والمترفون) (١٨٢) ٠

والمرأة الحضرية فى العصر الأموى امتزج بداخلها التياران البدوى والحضرى فبدت غير بدوية تماما كمـــا أنها غير حضرية بالمعنى الحديث فهى مزيج خاص ميز المرأة فى هذا العصر ورسم لها صورة تباين صورة غيرها من النساء ٠

ومحبوبة عمر الحضرية كانت سافرة فى أغلب الأحيان وهى شغوفة بمعرفة الآراء فى هذا الجمال الحضرى البدوى الفاتن ٠

يقول عمر :

فلما تفاوضنا الحديث وأسـفرت
وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا (١٨٣)

وتذكر الروايات أن عمر بن أبى ربيعة رأى عائشة بنت طلحة سافرة فى موسم الحج ترمى الجمار فقال :

انى وأول مـــا كلفت بحبهـــا
عجب وهل فى الحب من متعجب

نعت النساء فقلت : لست بمبصر
شبها لهـــا أبدا ولا بمقـــرب

---

(١٨٢) حديث الاربعاء ١ / ٢٩٥ ٠
(١٨٣) الديوان ٢٢٨ ٠

ولقد تركن حــزازة في قلبـــه
منها يجق أو حــــديث المهرب

فمكثن حينا ثــم قلن : توجهت
للحج موعدها لقاء الأخشب(١٨٤)

أقبلت أنظــر مازعمن وقلن لى
والقلب بين مصـــدق ومكـــذب

فلقيتها تمشى تهادى موصــــفا
ترمى الجمار عشــية فى موكب

غراء يعشى الناظرين بياضـــها
حوراء فى غــلواء عيش معجب

فتأملت عيناى فيـــك وانمــــا
زور المنية لابن آدم يصـــــحب

ان التى من أرضها وســــمائها
جلبت لحينك ليتها لم تجلب(١٨٥)

وهذا الشعر يوضح تأثير رؤية الشـــاعر لجمال محبوبته وسفورها وهو يعد من شعر الوصف الخاص بالمرأة أو مديح المرأة وهو خال من الفحش أو وصف مالا يليق ·

---

(١٨٤) الاخشب : واحد لاخشبين جبلان بمكة ـ موهنا : ليلا ·
(١٨٥) الديوان : ٤٩ ·

ومن هذا الشعر الذى يمتدح المرأة ونقاء سريرتها وعلو مكانتها فى قومها . قوله فى فاطمة بنت عبد الملك بن مروان عندما حجت ولم يستطع أن يذكر اسمها خوفا من الحجاج بن يوسف الثقفى وكان قد توعده أن هو شبب بها يقول :

شاق قلبى تذكر الأحبـــــاب
واعترتنى نوائب الأطـــــراب

يا خليلى فاعلمـــــا أن قلبى
مســـــهام بربة المحـــــراب

علق القلب من قريش ثقـــــالا
ذات دل نقيـــــة الأثـــــواب

ربة للنســــــاء فى بيت ملك
جدها حل ذروة الأحساب(١٨٦)

فهو يمدحها بالدين والحسب والجمال والدلال والعفة .

وليس كل شعره فى الشريفات على هـــــذا المنوال بل نراه يسترسل أحيانا مع خياله الشعرى فيقول مالا يفعل ويتخيل علاقة حب أو نزوة جامحة بينه وبين احدى أولئك الشريفات وربما اعترف ضمنا بأنه يصف أمانيه وخياله وهنا يؤكد على معنى عفة المحبوبة يقول فى فاطمة بنت عبد الملك بن مروان متخيلا ما يود أن يكون بينه وبينها من علاقة :

---

(١٨٦) الديوان ٤٤ ، ٤٥ .

كدت يوم الرحيـــل أقضى حياتى
ليتنى مت قبـــل يوم الرحيـــل

لا أطيق الكلام من شـدة الو
جد ودمعى يسيل كل مسيل

ذرفت عينها ففاضت دموعى
وكـلانا يلقى بلب أصـــيل

لو خلت خلتى أصـبت نوالا
أو حديثـا يشفى مع التنويل

ولقـد قالت الحبيبـة لولا
كثرة الناس جدت بالتقبيـل

ليس طعم الكافور والمسك شيئا
ثم عـلا بالراح والزنجبيـل

حين تنتابها ، بأطيـــب من فيــ
ـها طروقا ، ان شئت أو بالمقيل

ذاك ظنى ولم أذق طعم فيهـــا
لا وما فى الكتاب من تنزيل(١٨٧)

وفى أحيان أخرى لا يصرح بكذبه • ومما يدل على كذبهنفى

(١٨٧) الديوان : ٢٩٦ ، ٢٩٧ •

سيدات هذه الطبقة للاحاديث التى تتعلق بوجود علاقة بين الشاعر وبينهن . ومن هذه الروايات التى رويت فى سيرة عمر أن سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف رضر الله عنها كانت جالسة فى المسجد الحرام فرأت عمر يطوف بالبيت فأرسلت اليه فقالت حين جاءها مالى أراك يا بن أبى ربيعة سادرا فى حرم الله ؟ ويحك أما تخاف الله ويحك الى متى هذا السفه ؟ فقال : أى هذه دعى عنك هذا القول أما سمعت ما قلت فيك قالت : لا فانشدها البائية التى يقول فيها :

ردع الفؤاد بذكره الأطـراب
وصبا اليك ولات حين وصـال

ان تبذلى لى نائلا يشــفى به
سقم الفؤاد فقد أطلت عــذابى

وعصيت فيك أقاربى فتقطعــت
بينى وبينهم عرى الأسـباب

وتركتنى لا بالوصـــال ممتعا
يوما ولا أســعفتنى بثــواب

فقعدت كالمهريق فضــله مائه
فى حـر هاجـرة للمع سراب

يشقى به منه الصـــدى فأماته
طلب السراب ولات حين طـلاب

قالت سعيدة والدمــوع ذوارف
منها على الخدين والجلبـــاب

ليت المغيرى الـــذى لم يجزه
فيما أطال تصـــيدى وطـــلابى

كانت تردلنــا المنى أيامنــا
اذ لا نلام على هوى وتصـــاب

خبرت مـــا قالت فبت كأنمـــا
رمى الحشا بنوافذ النشاب(١٨٨)

فلما فرغ من أنشاده قالت له : أخزاك الله يا فاسق ما علم الله انى قلت مما قلت حرفا ولكنك انسان بهوت ، وهذه القصة يقاس عليها مثيلاتها وتدل على افتراء الشعراء ٠

وفى الغالب أن الشاعر استعار أسماء سيدات الطبقة الراقية ونسج حكاياته ومغامراته التى وقعت مع غيرهن ٠

وكانت نساء هذه الطبقة من الشهرة والتحرر بحيث يعرف الشاعر أسماءهن فيؤلف تلك العلاقات التى لم تحدث الا فى خياله٠

وربما يعلل كثرة حديث عمر عن هؤلاء النسوة بأسمائهن تشجيعهن له فى بعض الأحيان على وصفهن ونظم القصائد فى التغنى بمحاسنهن ارضاء لغرورهن وحبا للشهرة ٠ وهذا الأمر ينطبق على النساء المقبلات للحج من بلاد من غير بلاد الحجاز فقد كان يرضيهن أن يرجعن الى بلادهن بأبيات تتساير بها الركبان ويفهم منها الأتراب المنافسات أنهن ذهبن الى الحجاز فخلبن الألباب

---

(١٨٨) الديوان : ٦٣ ٠

وأطلقن ألسنة الشعراء (١٨٩) . ومن أمثلة ذلك قصة العراقية التى رواها صاحب الأغانى حيث قال (بينما عمر بن أبى ربيعة يطوف بالبيت اذ رأى امرأة من أهل العراق فأعجبه جمالها فمشى معها حتى عرف موضعها ثم أتاها فحادثها وناشدها وناشدته وخطبها فقالت : ان هذا لا يصلح ها هنا ولكن ان جئتنى الى بلدى وخطبتنى الى أهلى تزوجتك فلما ارتحلوا جاء الى صديق له من بنى سهم وقال له : لى حاجة أريد أن تساعدنى عليها فقال له : نعم فأخذ بيده ولم يذكر له حاجته ثم اتى منزله فركب نجيبا له وأركبه نجيبا آخر وأخذ معه ما يصلحه وسار لا يشك السهمى فى أنه يريد سفر يوم أو يومين فما زال يحفد حتى لحق بالرفقة ثم سار بسيرهم يحادث المرأة طول طريقه ويسايرها وينزل عندها اذا نزلت حتى ورد العراق فأقام أياما ثم أرسلها يتنجزها وعدها فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها وولدت منه أولادا وأوصى بهم وبماله اليها مالم تتزوج وأنها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة وبعثت اليه بخمسة آلاف درهم واعتذرت فردها عليها ورحل الى مكة وقال فى ذلك قصيدته التى أولها :

نام صـــــحبى ولـــم أنم
من خيـــــال بنا ألم (١٩٠)

فهذه الحسناء لم ترد حبا ولا زواجا ولا متعة حديث ولكنها أرادت أن يشتهر بين الناس أنها أزعجت شاعر الغزل فى الحجاز حتى لحق بها وتمنى زواجها فلم تجبه الى مناه .

---

(١٨٩) شاعر الغزل ص ٥٠ بتصرف .

(١٩٠) الديوان ٣٩٥ - الاغانى ١ / ٨٤ فى فاطمة بنت الاشعث الكـــندية .

فنساء هذه الطبقة كن مولعات بالشـــهرة واللهو البرىء وولوعهن بالشعر ومعرفة قيمته جعلهن يسعين الى أن يخلدن فيه فتنظم فيهن الأبيات والقصائد ٠ وهذا يسعدهن ويغيظ المنافسات ٠

ولم تفعل ذلك المرأة العراقية فقط بل فعلته الحجـــازيات والشاميات واليمينات ٠ وهذا أسلوب من أساليب الترف وصنفا من أصناف لهو نساء الطبقة الارستقراطية ذلك هو السعى وراء الشهرة ٠

ولعت النساء بالشعر والغناء فنشأت الصلة بين عمر بن أبى ربيعة وبينهن وهى صلة لهو برىء وقطع لأوقات الفراغ فى شعر الغزل وترجم هذا اللهو من جانب عمر الى قصص ومغامرات لم تحدث الا فى خيال الشاعر ومع ذلك فكثرة تداولها وعناية الرواة بها وزيادتها والمبالغة فيها أدت الى تشويش صورة المرأة فى هذه الطبقة والاساءة اليها ذلك أنها جعلت من الخيال حقيقة واقعة ومن الحرية واللهو البرىء اباحية ومجونا وهذه الصور كان معروفا عنها فى ذلك العصر أنها خيال شاعر وكان هذا المجتمع مازال قريب العهد من البداوة فهو وان تحضر بعض التحضر فحضارته تميل الى البداوة ونعومته تختلط بخشونة البدو ٠ ثم أن هذا المجتمع كان مجتمعا اسلاميا قريب العهد بالاسلام وكانت بيئة مكة وبيئة المدينة التى انتشر فيها هذا الغزل وهذه الحرية بيئة دينية تقدس الدين وتحافظ على مبادئه ولكن خيال الشاعر أفسد الكثير ٠ كما أن مبالغات الرواة أتت على عفة المرأة العربية فى هذا العصر فصورتها بصورة غير صحيحة وغير واقعية ولم يتنبه الرواة الى أن الشعراء يقولون مالا يفعلون ٠ وقد ذكر عمر بن أبى ربيعة فى بعض الروايات وفى شعره أن علاقاته بالنساء غير المباحات له لم يكن الا لونا من ألوان المزاح باللسان ٠ واعترف أنه لم يقترف اثما وانما هو مولع بالنظر الى الحسان :

انى امرء مولع بالحسن اتبعه
لا حظ لى فيه الا لذة النظر (١٩١)

وروى صاحب الأغانى ان عمر بن أبى ربيعة قال (قد سمعتنى أقول فى شعرى قالت لى وقلت لها وكل مملوك لى حر ان كنت كشفت عن امرأة حرام قط) (١٩٢)٠

وعلى هذا فنساء هذه الطبقة قد ظلمن بسبب جموح خيال الشعراء وخاصة عمر بن أبى ربيعة الذى رسم لهن صور فاقعة الألوان ذات بهرج وزينة شديدة المغالاة حتى أصبحت هذه الصورة مشوهة والواقع كان أكثر بساطة من هذه الصور وأقل ألوانا وظلالا وعلى هذا فقد نقل عمر بن أبى ربيعة صورة المرأة الحضرية فى الطبقة الارستقراطية بطريقة مبالغ فيها أحيانا كما انه أخطأ بوصف مغامراته الخيالية مع نساء هذه الطبقة ٠ وقد ظلم عمر المرأة فى عصره باظهارها بصورة المرأة الجريئة المفصحة عن حبها والذليلة فى حبها على عكس عادة النساء وعلى عكس الصورة الكريمة المعروفة عن النساء العربيات على وجه الخصوص والتى تأثر بها الغرب فى قصصهم وأشعارهم ٠ المرأة العربية أهم ما يميزها العفة والمحافظة على الكرامة سواء فى ذلك البدوية أو الحضرية فكيف يصورها عمر مهملة لكرامتها وكبريائها تسعى جاهدة لوصل الود بينهما واعادة الروابط تارة بنفسها وأخرى عن طريق ارسال المراسيل يقول :

ان هندا قد أرسلت
وأخو الشوق مرسل

---

(١٩١) الديوان : ٢١٢ ٠
(١٩٢) الاغانى ١ / ٧٨ مع تغيير طفيف فى الالفاظ ٠

أرسلت تستحثنى
وتفدى وتعزل (١٩٣)

ويقول مصورا شكواها من الوشاة وضيقها وتلهفها على وصال عمر :

ولما التقينا سلمت وتبسمت
وقالت كقول المعرض المتجنب

أمن كل واش كاشح بنميمة
مشى بيننا صدقته لم تكذب

قطعت حبال الوصل منا ، ومن يطع
بذى وده قول المحرش يعتب(١٩٤)

وقد عيب على عمر هذا الأسلوب فى وصفه وتغزله بالنساء . وهذا مما يدل على أن جرى النساء وراء الرجال وملاحقتهن والبوح بحبهن لم يكن ظاهرة عامة معترفا بها فى هذه البيئة بل هى خيال شاعر يحلم بتلهف النساء عليه ورغبتهن فى وصاله وهى كذلك ظروف الشاعر الخاصة وتدليل أمه وصويحباتها له مع جماله وشدة اعتزازه بنفسه هذا وغيره جعله يتجه هذا الاتجاه المخالف لذوق العصر والذى أضر بسمعة المرأة العربية وشوش صورتها . ولم يخطىء عمر وحده وانما أخطأ معه الرواة بما ذكروه من روايات خيالية عن ولع النساء بعمر بن أبى ربيعة .

---

(١٩٣) الاغانى ١ / ١٨٣ .
(١٩٤) الديوان ٥٥ ، ٥٦ .

وهذه المبالغات لا يمكن أن تقبل من الناحية المنطقية وهى أن صدقت فى أحوال نادرة فهى لا تمثل الصورة العامة للمرأة العربية فى العصر الأموى وانما تمثل حالات شاذة وقلة قليلة من النســـاء لا يمكن أن يقاس عليها ٠

أما الأمر الجديد حقا بالنسبة لصورة المرأة عند عمر بن أبى ربيعة فهو نفاذه الى داخل المرأة وتصويره لها من الداخل نفسيتها ومشاعرها وما تحب وما تكره ٠ وفى الغالب أن عمر بن أبى ربيعة يعد المكتشف الأول لنفسية المرأة قبل ظهور علم النفس ومن هـذا الشعر الذى يكشف عن خبايا نفسية المرأة والذى يوضح غيرتها وحسدها لمن تفضلها قوله :

زعموها ســـألت جاراتهـــا
وتعـــرت ذات يـــوم تبترد

أكمـــا ينعتنى تبصـــرننى
عمركن الله أم لا يقتصـــــد

فتضـــاحكن وقد قلن لهـــا
حســـن فى كـل عين من تود

حسد حملتــــه من أجلهـــا
وقديما كان فى الناس الحسد (١٩٥)

ويذكر وقع زواجه على محبوبته فيصف بصدق تأثير وقـع هذا الخبر عليها ويصور ألمها بصدق ودقة يقول :

(١٩٥) الديوان : ١٠١ ٠

خبروها بأنني قد تزوجـــت
فظلت تكاتم الغيـــظ سرا

ثم قالت لأختها ولأخـــرى
ليتـــه تـــزوج عشـــرا

وأشـــارت الى نساء لديها
لا ترى دونهن للسر ســـترا

مالقلـــبى كأنه ليس مـــنى
وعظـــامى اخال فيهن فترا

من حـــديث نمى الى فظيع
خلت فى القلب من تلظيه جمرا (١٩٦)

وهو يصور تفكير المرأة وطبائعها فى مواقف الحيـــاة فهى تميل الى استشارة الصديقات فى مشكلاتها والصـــديقات منهن المخلصة المتزنة التى تخلص فى نصحها يقول عن الثريا فى موقف خصام بينها وبين عمر :

قالت على رقبة يومـــا لجاراتها
ما تأمرين فان القلب قـــد تبلا

وهل لى اليوم من أخت مواسية
منكن أشكو اليها بعض ما عملا

---

(١٩٦) الديوان : ٢٠٨ .

فجاوبتها حصان غير فاحشـــة
برجع قول وأمر لم يكن خطلا

أقنى حياءك فى ستر وفى كـرم
فلست أول أنثى علقت رجــلا

لا تظهرى حبه حتى اراجعــــه
انى سأكفيكه ان لم أمت عجلا

صدت بعادا وقالت للتى معهـــا
بالله لوميه فى بعض الذى فعلا

وحديثه بمـــا حدثت واستمعى
ماذا يقول ، ولا تعيى به جــدلا

حتى يرى أن ما قال الوشاة له
فينـا لديه انينـــا كله نقـــلا

وعرفيه به كالهــزل ، واحتفظى
فى غير معتبة أن تغضى الرجــلا

فان عهـــدى به والله يحفظــه
وان أتى الذنب مما يكره العــذلا

لو عندنا اغتيب أو نيلت نقيصته
ما آب مغـــاتبه من عنـدنا جذلا

والشاعر يصور حديث المرأة الى صديقتها وهو عارف بحوار النساء وما يفكرن به وهو يصور فى نفس الوقت حرص محبوبته على مشاعره ومعرفتها لطباعه وتلهفها على صـــلحه وان كانت حزينة لفعله معها والألفاظ المستخدمة لينة والاسلوب مما يستخدم فى الحياة اليومية والأفكار مما يسهل دورانه فى هذه المواقف ٠

والصورة واضحة لعاشقة مهجورة حزينة تبث شـــكواها وصدى نفسها الى صديقتها وربما لم تلجأ الى صديقتها فى وقت وصالها المحبوب وربما أخفت علاقاتهابه ولكنها فى وقت الحـزن والخصام لا تستطيع الكتمان بل لابد من الشكوى ٠ والشكوى من أهم طبائع النساء فى كل عصر ٠

ودموع المرأة الغزيرة تكثر فى غزل عمر فى الاســتعطاف والعتاب فى الحزن والفرح والرحيل٠ ومعها يصور قوة عاطفة المرأة

والدموع فى العتاب والتهديد والاستعطاف تبدو فى قوله :

عشية قالت والدمــوع بعينهـــا
هنيئا لقلب عنك لم يسله مسلى

لقد كان فى اقراضك الود غيرنا
وفعلك ناه لى لو ان معى عقلى

فهذا الذى فى غير ذنب علمتــه
صنعيك بى حتى كانى أخوذ حل

هل الصرم مسلمى ، ان صـــرم
تنى الى سقم ما عشت أو بالغ قتلى

سأملك نفسى ما استطعت فان تصل
أصلك وان تصرم حبالك منحبلى

أكن كالذى أسدى الى غير شاكر
يدا لم يثب فيها بحمد ولا بذل(١٩٧)

ويقول فى الرحيل ويذكر دموع المحبوبة فى هذا الموقف :

قالت تشـــيعنا فقلت صـــبابة
ان المحب لمن يحب مشـــبع

فاســـترجعت وبكت لما قد غالها
ان الموفق فاعلمـــوا مسترجع

فتبعتهم ومعى فـــؤاد موجـــع
صعب بقربهم وعين تدمع(١٩٨)

---

(١٩٧) الديوان : ٣٠٤ .
(١٩٨) الديوان : ٢٤٠ .

الخـــاتمة :

وبعـــــد

فأرجو أن أكون قد وفقت الى أيضاح صور المرأة فى العصر الأموى ورد افتراءات المفترين الذين صوروها بصورة بعيـدة عن الحقيقة والواقع معتمـدين فى ذلك على خيـال الشـعراء ونسـج أحاديث الرواة ·

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطـــأنا
ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على
الذين من قبلنا ·

ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف
عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا
على القوم الكافرين »

صدق الله العظيم

المصـــادر والمراجـــع

١ - القـــرآن الكريم

- أدب النساء فى الجاهلية والاسلام ، محمد بدر معبد ، ط النموذجية ، القاهرة

- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط لجنة التأليف والترجمة ٠

- أشهر النساء فى التاريخ ، على الجبالى ، ط المركز العربى الحـديث

- الأغانى ، أبو الفرج الأصفهانى ، ط بيروت ، مصورة عن دار الكتب المصرية ٠

- الاصابة فى تمييز الصحابة ، أبو الفضل أحمد بن على الكنانى العسقلانى المعروف بابن حجر ، ط المطبعة الشرفية ، مصر ٠

- تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ، ط الهلال

- تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان ، ط دار المعارف

- تاريخ التمدن الاسلامى ، جورجى زيدان ، ط الهـلال ٠

- تاريخ الأدب العربى ، العصر الاسلامى ، شوقى ضيف ، دار المعـارف ٠

ـ تاريخ الاسلام السياسى ، د٠ حسن ابراهيم حسن ، ط النهضــة المصرية ٠

ـ تاريخ الطبــرى ٠

ـ تراجم سيدات بيت النبوة ، د٠ عائشة عبد الرحمن ، ط بيروت ٠

ـ تزيين الأسواق بتفصيل العشاق ، دار الانطاكى ، ط البهية المصرية ٠

ـ الحب والغزل بين الجاهلية والاســــلام ، عبد الله انيس الطباع ، بيروت ٠

ـ الحب المثالى عند العرب ، د٠ يوسف خليف ، دار المعارف سلسلة اقــرأ ٠

ـ حديث الأربعاء د٠ طه حسين ، حـ ١ ، ط دار المعارف

ـ الحياة الأدبية فى العصر الأموى ، د٠ عبد المنعم خفاجى٠

ـ خزانة الأدب البغدادى ، ط مصر ٠

ـ ديوان جميل بثينة ، ط بيروت

ـ ديوان ذى الرمة ، ط بيروت

ـ ديوان جــرير ، ط بيروت

ـ ديوان الفرزدق ، ط دار المعارف ٠

ـ ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح ، ط بيروت ٠

ـ قيس ولبنى ، تحقيق ودراسة حسين نصار ، ط بيروت

ـ ديوان عمر بن أبى ربيعة ، ط بيروت ٠

ـ رسالة القيان للجاحظ ، ط السلفية ، مصر ٠

ـ السيرة النبوية لابن هشـــام

ـ شاعر الغزل ، سلسلة اقرأ ، عباس العقاد ، دار المعارف

ـ شاعرات العرب ، تحقيق سيد صقر ٠

ـ الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق محمود محمد شاكر، ط الحلبى

ـ طبائع النساء ، ابن عبد ربه ٠

ـ طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحى ، تحقيق محمد محمود شاكر ، دار المعارف ٠

ـ العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ط دار الكتب ٠

ـ عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، ط دار الكتب ٠

ـ الكامل فى التاريخ ، ابن الاثير ، ط الأميرية ٠

ـ لسان العرب ، ابن منظور ، ط ١ دار المعارف ٠

ـ المرأة فى شعر البحترى ، د٠ نعمات أحمد فؤاد ، دار المارف

ـ المرأة فى شتى العصور ، ابن الخطيب ، ط المصرية ٠

ـ المرأة فى حضارة العرب ، محمد جميل بهيم ٠

ـ مروج الذهب ، المسعودى ، ط بيروت ٠

ـ المستطرف فى كل فن مستظرف ، الأبشيهى ، ط بيروت ٠

ـ مصارع العشاق ، أبو محمد جعفر السراج ، ط الجوائب الاستانة ، ١٩٠٧ ٠

الفهـــرس

رقم الايداع ٥٨٨٢ / ٨٦